الفصل الأول

تحليل التبليغ

١. التبليغ غاية وجودنا
٢. الحاجة إلى التبليغ ومكتسباته
٣. التبليغ أثمن هدية
٤. التبليغ يتطلب الاستمرار
٥. جوانب التبليغ المتوجهة إلى الحق سبحانه وإلى الخلق
٦. التبليغ والعلاقة بين الفرد والمجتمع
٧. الإرشاد والإيمان والنفاق
٨. الإرشاد والهلاك من خلال الحوادث التاريخية
٩. التبليغ والإرشاد مقياساً لنصرة الدين

١- التبليغ غاية وجودنا

إن "الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر" طريق يؤدى إلى الغاية من خلق الوجود. فقد فتح الله سبحانه وتعالى قصر الكون لأجل هذه المهمة السامية والوظيفة الجليلة، وبوأ الإنسان منـــزلة الخلافة في ذلك القصر المنيف لأجلها. وأُسست سلسلة النبوة لهذا السبب. فسيّدنا آدم عليه السلام هو أول إنسان وأول نبي على الأرض، ما إن فتح أبناؤه أعينهم حتى وجدوا أمامهم أباهم نبياً يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.. وهكذا تشكلت البشرية بدءاً بالنبوة. وفي النتيجة أثمرت شجرة النبوة سيد الكونين ذلك النبي العظيم الذي هو بذرها الأولى، وخُلقت الأفلاك لأجله ﷺ. ولا ريب أن غاية بعثته هي التبليغ والدعوة إلى الله والإرشاد. وما روح التبليغ والإرشاد إلاّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. بمعنى أن الوجود ما وجد إلاّ لأجل هذه الغاية، ولا جرم أن عملا هو سبب خلق الوجود هو أجلّ الأعمال.

نعم، فقد وجد أبناء آدم عليه السلام أن أباهم يسدد نظره كل آن وأوان إلى العالم العلوي، ويستلم الأوامر من هناك ويرضخ خاشعاً أمام هذه الأوامر، بل لا تغادره الخشية من تلك العوالم الأُخرى. حتى غدا لهم"النبي الأب" كالنجم القطبي في سمائهم يدلّهم إلى سواء السبيل، فسيدنا آدم هو أول إنسان ونبي أدى مهمة "الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر". ولا غرو فليس هو بدرب يفتح لمرة واحدة فقط ثم يسدّ، بل تتابع عقب سيدنا آدم عليه السلام أنبياء عظام يسلكون الدرب نفسه، إذ كانت حاجة البشرية مستمرة إلى الأنبياء. لأن الفضائل مهما بلغت في الإنسان فإنها تضعف وتشحب وتنتهي بمرور الزمن وتحت وطأة الحوادث. وقد أشار القرآن الكريم إلى عهود طال

عليها الأمد من دون تجدد فأصبحت وسيلة لقسوة القلوب. وعندها تنخسف عيون البشر وتزيغ الأبصار وتزل الأقدام، فتفقد الإنسانية استقامتها. لذا بعث المولى الكريم الأنبياء تترى لعلمه المحيط بأوضاع البشرية ولسبق رحمته على غضبه. فتولى كل نبي مهمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حسب ظروف زمانه.

أمضى سيدنا آدم عليه السلام حياته على هذه الصورة وأوصى أولاده دائماً بأداء الصالحات واجتناب المنكرات. واستمر صدى صوته وإرشاده إلى فترة من الزمن، حتى إذا خفتت نبرات ذلك الصوت وفقدت قوتها ألقى الله سبحانه وتعالى مهمة النبوة على عاتق أحد أبناء سيدنا آدم عليه السلام المجتبين. وهكذا كلٌ قد أدّى تلك المهمة الجليلة على أكمل وجه وأتمه. وكلما أفَلَت شمسُ نبي من الأنبياء أشرقت شمس نبي آخر بعد أن أظلمت سماء البشرية. وعلى الرغم من أن الأولياء العظام أيضاً قد ملأوا تلك السماء المظلمة بالنور كالنجوم المتلألئة إلاّ أن نورهم ليس بسطوع ما ينتظر من نور شمس النبوة.

ومرت العصور هكذا إلى عهد سيدنا نوح عليه السلام، وعندها دوّى في أذن البشرية صوته الجادّ الذي يليق بنبي عظيم من أولي العزم كما عبّر عنه القرآن الكريم ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف:٦٢).

يعني: سينجو مَن يستجيب لي ويطيعني ويركب سفينتي، وستكون هذه النجاة نجاة ظاهرة وباطنة معاً؛ فالسفينة التي تمخر عباب الأمواج المتلاطمة كالجبال تنجي أجسادكم، وتنجون من الغرق في أمواج الحياة الدنيوية والأخروية الرهيبة، وتبلغون ساحل السلامة إن ارتبطت قلوبكم بي وأصغيتم إلى كلامي. وإلاّ ستنتهون وتضمحلون مادة ومعنى ظاهراً وباطناً.

هكذا أمضى سيدنا نوح عليه السلام ما يقرب من ألف سنة من حياته في الدعوة بهذا الأسلوب. ثم بعث الله سبحانه بعده سيدنا هوداً عليه السلام. فردد

أيضاً: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾(الأعراف:٦٨). ودعا البشرية إلى القيام بما يوافق غاية خلقهم. تلك الغاية التي خُلق لأجلها الإنسان. فتعاقبت الأنبياء عليهم السلام لتذكير هذا الإنسان بهذه المهمة، أي ليعرف ربّه ويؤمن به ويستشعر بما آمن به في وجدانه. وقد أُرسل بعد سيدنا هود عليه السلام أنبياء عظام أدّوا المهمة نفسها وسلكوا السبيل نفسه.

وهكذا كلما مُسحت من الأذهان أثر أنفاس النبي السابق تدنت البشرية وتعاقبت هزات عنيفة في حياتها المعنوية، حتى تحولت تلك الحياة إلى أرض جرداء لا حياة فيها. فانتهت تماماً نسائم الانشراح القادم من ذلك العالم السامي، وتدهورت البشرية وتفرقت شذر مذر.

كانت البشرية تعيش هذا الوضع من الظلام الدامس عندما اُرسل سيدنا إبراهيم عليه السلام، فاقتحم صفوف الناس بأنفاس "الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر" الباعثة على الحياة، وهرع إلى كل موضع يرى فيه ثلة من الناس ودعاهم إلى الله وبلّغهم الحق والحقيقة. فالذين أعاروه سمعهم واتبعوه بلغوا شواهق كمالات الإنسانية مجدداً وتجولوا في تلك الذرى.

ولكن بعد فترة من الزمن أخذت البشرية كرة أخرى تغادر الذرى وتتردى تدريجياً إلى ما كانت عليه سابقاً، فتصدرت الأذهان فكرة المادية الجاسية حتى أخذت البشرية تبحث عن ضالتها في الماديات، فهذه المصيبة التي جثمت على صدر البشرية امتدت حتى عصرنا الحاضر، بل نحن أدرى بويلاتها وعواقبها الوخيمة.

فهذا سيدنا موسى عليه السلام ظهر في مثل هذا الجو المادي، في دلتا النيل بمصر، وفي قوم قست قلوبهم فهي كالحجارة أو أشد قسوة. وهو كإخوانه السابقين من الأنبياء مأمور بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فتحمل هذه المهمة الصعبة وأخذ بيد قومه ليرقى بهم إلى الذرى مرة أخرى. فوفّق إلى حد ما في مسعاه، إذ على الرغم من أنه خاطب قوماً لا يسلس قيادهم وهداهم

فقد شاهد كثيراً من ثمار دعوته المباركة وحصيلة سعيه الدائب بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو ما زال على قيد الحياة.

ومما لا شك فيه أن الأخذ بيد الإنسانية والصعود بها إلى الشواهق العالية وجعْلَها تدرك إنسانيتها كاملة ليس بالأمر السهل الميسور؛ فلقد اُستشهد أنبياء كثيرون في هذا السبيل. حتى إن زكريا عليه السلام شُقّ إلى نصفين بمنشار من حديد، وإن سيدنا يحيى عليه السلام استشهد في هذا السبيل، وما الصليب الذي نصب لسيدنا عيسى عليه السلام إلا لهذا الغرض.

وعلى الرغم من كل هذا فالمصاعب والمشاق التي تَعَرَّض لها الرسول الكريم ﷺ هي أدهى منها كلها، إذ لم يبق شيء من الأذى والمشاق إلاّ وعاناها حتى قال لسيدتنا عائشة رضي الله عنها: "لقد لقيتُ من قومكِ ما لقيتُ".[1] في هذا الكلام أنين قلب منكسر صادر من رسول محزون. خذوا هذا الكلام وأوصلوه إلى جميع الأنبياء والمرسلين حتى سيدنا آدم عليه السلام، وراقِبوا خيالاً وقْعَ هذا الكلام، ستجدون أنه أنين قلب منكسر لكل نبي من الأنبياء. وكأننا نرى سيدنا آدم يجمع أبناءه ويقول لهم: "لقد لقيت منكم ما لقيت" وسيدنا نوح وهود يقولان الكلام نفسه، وهكذا الأنبياء الباقون يرددون الانكسار نفسه لأقوامهم.

وإذا ما عُصر كلام السعداء الذين تعهّدوا هذه الوظيفة وأخذوها على عاتقهم من بعد عهد رسول الله ﷺ، نجد الإنكسار نفسه يتقطر منه:

"لم أذق طوال عمري البالغ نيفا وثمانين سنة شيئا من لذائذ الدنيا... قضيت حياتي في ميادين الحرب، وزنـــزانات الأسر، أو سجون الوطن ومحاكم البلاد. لم يبق صنف من الآلام والمصاعب لم أتجرعه؛ عوملت معاملة المجرمين في المحاكم العسكرية العرفية، ونُفيتُ وغُرّبت في أرجاء البلاد كالمشردين، وحُرمت من مخالطة الناس شـــهوراً في زنــــزانات البلاد،

(١) البخاري، بدء الخلق ٧؛ مسلم، الجهاد والسير ١١١.

وسُممت مراراً، وتعرضت لإهانات متنوعة، ومرت عليّ أوقات رجحت الموت على الحياة ألف مرة. ولولا أن ديني يمنعني من قتل نفسي، فربما كان سعيد الآن تراباً تحت التراب".[1]

فهذه الكلمات ما هي إلاّ تعبير عما يكنّه القلب من انكسار. ولعله بكلامه هذا قد أفاد عن جميع العظماء المنكسرة قلوبهم. فهذه الحالة إذن قدرٌ مكتوبٌ على كل من يقوم بمهمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

ولأجل استشعار أهمية هذا الأمر وجلالة قدر المشتركين فيها أردت تحريك مكوك تفكركم لتنسجوا خط المواصلة ولاسيما بين سيدنا آدم وسيدنا الرسول ﷺ. وشدة انفعالي نابعة من قدسية المسألة، فأكاد أستشعر وأسمع في خيالاتي شدو أذكار أولئك الميامين، رجال الحق والحقيقة.

إن كل خطوة يخطوها المرء في سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تُكسبه ثواب وراثة النبوة؛ لأن هذه الوظيفة الجليلة هي أساساً وظيفة الأنبياء عليهم السلام. فأيّما إنسان يخطو فيها خطوة فقد دخل تحت عبء هذه المهمة النبيلة، أووهب له المولى الكريم هذه الوظيفة فضلاً منه وكرماً.أي يغنم ثواب هذه الوظيفة حسب نيته ودرجته.

وتجدر الإشـــارة هنا إلى أمر آخر، هو: أنه لما كانت هذه الوظيفة وظيفة الأنبياء عليهم السلام وهم جميعاً على الاستقامة التي أمر الله بها سبحانه، فالذين ينهضون بهذه الوظيفة "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" هم كذلك على الاستقامة من حيث أداؤهم لهذه الوظيفة في الأقل.

والخلاصة: أن على المؤمن أن يوفي هذه الوظيفة الملقاة على عاتقه –أي التبليغ– حقها ضماناً لقبوله مؤمناً لدى الرب الجليل وبقائه على الإيمان به، وذلك للعلاقة القريبة بينهما. فلا يثبت الأفراد وكذا الجماعات وجودهم ولا يمكن أن يديموه إلاّ بإيفاء هذه الوظيفة حقها.

---

(١) سيرة ذاتية لبديع الزمان سعيد النورسي، ص ٤٥٧.

إن سر وجود المؤمن وشرط بقائه مؤمناً حقاً هو: تمثل الحق والحقيقة في حياته، وعدم السكوت كالشيطان الأخرس أمام الظلم، وعدّ الحياة غير ذات أهمية والاستهانة بالموت، والبقاء دوماً في دائرة مفاهيم الصحابة الكرام، واعتبار هذه الوظيفة السامية غاية الحياة. فما أضيع الأيام التي مرت دون معايشة هذه الأمور. فينبغي على كل مؤمن أن يلوذ إلى كنف الله سبحانه ويستعيذ به من مجتمع لا ينهض بها.

ويجد المرء إمكانية ترجمة أفكاره -التي يؤمن بها ويضحي في سبيلها- إلى الحياة، في أثناء أدائه هذه الوظيفة، فضلاً عن أن ما يحمله من إيمان لا يبقى في فراغ. إذ الإسلام حقيقة هو معايشة وحياة، فلا يُفهم ما لم يكن معيشاً. والإنسان الذي جعل الإيمان والدعوة مركزاً لكل شيء، ينسج جميع فعاليات حياته حول هذا المركز.إذ إن أول أساس من الأسس الخمسة التي يجب على المؤمن أن يحافظ عليها هو الدين.(١) فهو بلا شك يحافظ على عرضه وشرفه وماله، وحياته، ونسله، وعقله، ولكن عليه أن يحافظ على دينه أولاً. وهو علامة على ما يوليه لدينه من أهمية. بل أجلى موقف يعبّر عن مدى ارتباط الفرد بالله سبحانه هو ما يبذله من جهد وغيرة على الحفاظ على دينه. ومما يجب ألاّ يُنسى أن الذي لا يحافظ على دينه لا يحافظ أيضاً على الأسس الأربعة الأخرى. ولعل أصوب درس يعلّمنا التاريخ إياه وأغزره عبرة هو هذا الدرس.

لقد خلقنا الله سبحانه وتعالى لنعرفه ونعرّفه. فالعيش بمقتضى القصد الإلهي هو سـر خلقتنا الذي يعمّر دنيانا كما يعمّر آخرتنا. وبخلافه نعاقب بصفعة تأديب من أجل هذا المقصد الإلهي الذي هو ضمان حياتنا الدنيوية والأخروية، نعاقب كأمة ونعاقب كمجتمع ونُدفع إلى شباك الفتن والفساد والعياذ بالله. أي يتعرض المجتمع إلى البلايا والمصائب عندما لا يؤدى هذه الوظيفة الجليلة، وظيفة التبليغ، وقد عبر عنها الرسول الكريم ﷺ ذات يوم

---

(١) الأسس الخمسة هي: الدين، العقل، النسل، المال، النفس.

والصحابة كالهالة حوله يستمعون إليه وكلهم آذان صاغية، وفي هذا اليوم صدر من ذلك اللسان الطاهر النـــزيه شيء من عبارات التهديد والهلاك في حديثه الشريف الذي يرويه أبو يعلى وابن أبي الدنيا: عن أبي هريرة قال: قال رســـول الله ﷺ: "كيف بكم أيها الناس إذا طغى نساؤكم وفسق فتيانكم؟ قالوا: يا رسول الله إن هذا لكائن؟ قال: نعم وأشد منه، كيف بكم إذا تركتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قالوا: يا رسول الله إن هذا لكائن؟ قال: نعم وأشـــد منه، كيف بكم إذا رأيتم المنكر معروفا والمعروف منكرا؟". [(١)]

اندهش الصحابة الكرام وحاروا أمام هذا الكلام، فما كانت عقولهم تتحمل أمراً كهذا؛ لأنهم كانوا يؤمنون أن مثل هذه الفتن لا تقع في مجتمع طالما فيه مؤمن واحد. ولهذا استفسروا: وقالوا: "يا رســـول الله إن هذا لكائن؟".

فهم يقولون هذا استفساراً وحيرة في الوقت نفسه. وعندما قـــال الرسول ﷺ: "والذي نفسي بيده وأشد منه"، خيّم جو غريب وزاغت الأبصار، فاستفسروا مرة أخرى في حيرة أشد: "ما أشد منه يا رسول الله؟" قال: "كيف بكم إذا رأيتم المنكر معروفا والمعروف منكرا؟" ولنأخذ هذا الجزء من هذا الحديث الشريف الـــذي يشير إلى يومنـــا هذا.

نعم، إن الحديث الشريف يشير إلى أن الموازيـــن والقيم، بل كل شيء سينقلب رأساً على عقب، فيصبح المنكر معروفاً والمعروف منكراً، وتشيع الفاحشة، وتعم الفوضى والإرهاب، ويُستخف بالإيمان والقرآن، ويُستهان بالمؤمنين، وتحافظ الدولة على عدد من المنكرات بالقوانين، وتعدّ الحقائق التي تخص الدين تخلفاً ورجعية. وهذا هـــو قلب للقيم والمقاييس. وإنسان هذا العصر قد عاش هذه الفتن أضعافاً مضاعفة وأظن أنه سيعيشها مدة أخرى.

---

(١) المسند لأبي يعلى ١١/٣٠٤؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٧/٢٨٠-٢٨١.

فالذل والهوان سيحلان محل العزة والكرامة ما لم تؤدَّ وظيفة التبليغ.

فإذا ما انتُهكت قوانين الفطرة فلا بد من تحمّل العاقبة الوخيمة والمصير المحتوم. والأمر على هذا المنوال منذ القدم. وذوو العقول السليمة لا يترقبون غير هذا. ولهذا استفسر الصحابة الكرام الذين استصعب وجدانهم ذلك مرة أخرى: "يا رسول الله إن هذا لكائن؟" أي أيؤمر بالمنكر وينكر المعروف؟ "بل أشد منه سيكون. كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟" بمعنى أنكم حينما تهملون أهليكم وذراريكم، فينجرفوا مع التيار، حتى تأمروهم بأفعالكم وأطواركم وأحوالكم بالمنكرات وتدفعوهم إلى نسيان الله ونسيان رسوله الكريم من القلوب. فيا ويلكم إذن من ذلك اليوم!

وهنا بلغت الحيرة والدهشة لدى الصحابة الكرام مبلغها سألوا بنبرات متقطعة: "يا رسول الله إن هذا لكائن؟.." فاجاب: "والذي نفسي بيده سيكون أشد منه". وقال: "فتن كقطع اللّيل المظلم يتبع بعضها بعضًا تأتيكم مشتبهةً كوجوه البقر لا تدرون أيًّا مِنْ أيّ". (١)

فالرسول ﷺ يبيّن للأمة بياناً معجزاً العاقبة الوخيمة الناجمة من عدم إدراك أهمية هذه الوظيفة الجليلة، وفي الحقيقة نحن جميعاً مكلّفون بهذه الوظيفة. ففي أعماق قلوبنا أنّات وآهات لآثام ثلاثة عصور خلت. والعلاج الوحيد لإزالة هذه الأنات والآلام العمل على إدراك الأمة أهمية الوظيفة التي تعهدها الأنبياء الكرام والقيام بأدائها معاً.

٢- الحاجة إلى التبليغ ومكتسباته

إنساننا اليوم بحاجة إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أكثر من أي وقت مضى، فالنبوة قد ختمت بخاتم الأنبياء ﷺ، فسُدّ ذلك الباب سداً نهائياً. والحال أن عصرنا الحاضر يموج كفراً وعصياناً يفوق مجموع ما في

(١) أحمد بن حنبل، المسند ٥/٣٩١.

العصور التي خلت. لذا يتعرض الذين تعهّدوا هذه الوظيفة الجسيمة في يومنا هذا إلى مضايقات ومشقات أشد ممن تعرضوا لها في العصور السابقة. فهذه الظروف العسيرة جداً هي التي تؤهل مرشدي عصرنا ومبلّغي الدعوة فيه أن يسبقوا الذين أتوا من قبلهم، ونأمل أن يتسنموا موضعاً خلف الصحابة الكرام مباشرة. فالنفس مهما كانت أدنى من الكل إلا أن الوظيفة أسمى من الكل. واللطف الإلهي سبحانه يرِدُ بقدر حاجة الناس. وعندما تُقسم الرحمة الإلهية إلى النـــاس كافة توزّع على الأغلب بنسبة متعاكسة مع اقتدار الشخص؛ فمن كان أعجز وأضعف فالله سبحانه أرحم به.

إن الذنوب النـــاجمة من النظر من منافذ أجواء شتى، وما تترك من انطباعات في أذهاننا قـــد اقتحمت حتى أغوار قلوبنا بل جعلتنا مشلولي القوى، فباتت ليالينا خالية من الأشواق ومحاريبنا محرومة من الدموع. ولا أدري مـــاذا ننتظر من مصائب بحالتنا هذه الشبيهة بجثة هامدة خاوية من العشق والمحبة؟ وربما المصيبة التي هي أدهى منها هي الطرد من رحمة الله الذي أصاب الشيطان -والعياذ بالله-.

نعم، نحن أناسي القرن العشرين نُصبح ونُمسي مع الذنوب، فلو رُفع الحجابُ عن أبصارنا وشاهدنا ماهيتنا المعنوية لكنّا أول من يولّى فراراً من حالتنا تلك.

وعلى الرغم من كثرة إجرامنا وانهيارنا وسقوطنا فإن إيداع ربنا الكريم وظيفة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلينا ليس إلا من حاجتنا الشديدة إلى رحمته تعالى. فنحن في منتهى الضعف والعجز والله سبحانه في منتهى العلو والرحمة. ولو عبّرنا عما يختلج في وجداننا بـــ"الحمد لله" ألوف المرات لكانت زهيدة أيضاً تجاه رحمته الواسعة هذه.

لقد غدا القرن العشرون قرن انهيار كل ما يتعلق بالمعنى والروح؛ إذ زاغت النظرات وغُشيت الأبصار وقُصمت الظهور، وغدت مواقع القياد

خلاف طهر المحراب. وعلى الرغم من هذه الظروف غير الملائمة فإن صوت سيد المرسلين ﷺ وأنفاسه الطاهرة تُسمَع ولو بهمسات خافتة. وإن صدى أقواله المباركة التي نطق بها قبل عصور، يتجاوز المكان والزمان ويصل إلينا، وما هذا إلا رحمة ربنا الواسع الرحمة. وإلاّ كيف نفسر هذا الأمر؟ ولهذا فما علينا إلا أداء الشكر على هذا اللطف العميم. وذلك بأن نملأ أعماق أرواحنا بأنفاسه الطاهرة الباعثة على الحياة ونستنشقها. فالذين يؤدون الشكر بهذا الشكل ينجون بإذن الله في العاقبة.

يقول سعدي الشيرازي:

تُـــرى، أيُّ غـــمّ قد يَحيـــقُ بأمةٍ لها أنت في الدنيا ظهيرٌ ومعوانُ

وما الخوف من موج البحار إذا طغى ونوح على ظهر السفينة رُبانُ(١)

نعم نحن نبحر في سفينة النجاة، ربانها سيد المرسلين. وربا ننا يهتف بنا قائلاً: "لا نجاة إلا لمن ركب السفينة". أفلا نستجيب لهذا النداء معاً؟

لنحاول الآن متابعة الآيات الكريمة التي تذكر بتوظيف المسلم بمهمة التبليغ وثوابه الدنيوي والأخروي لقيـــامه بوظيفته حق القيام. يقول تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(آل عمران: ١٠٤).

بمعنى لتتكون منكم جماعة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر دائماً؛ فيدعون الناس إلى الخير ويجنّبوهم الشر، ويبينون لهم الحسنات ويكونون مثال الصدق والاستقامة، حتى إنهم يتجنبون السيئات تجنبهم الثعابين والعقارب. وبتعبير آخر يكون كل واحد منهم كالنجم القطبي في المجتمع لتهتدي بهم سفينة المجتمع التي تمخر عبـــاب بحر الحياة الاجتماعية إلى سواء السبيل، فتُنظم القيادات وتوزع المسؤوليات وفقهم. وبهذا تُقلل الانحرافات

(١) "كلستان" لسعدي الشيرازي (ترجمة: محمد الفراتي، روضة الورد) ص ٩.

والتخلفات إلى أصغر حد ممكن. فهذه الجماعة الرائدة تكون ملتحمة مع هذه الوظيفة إلى حد أن الذين يتفرسون فيهم لا يجدون أنفسهم إلا أنهم أمام مجسَّم الأمر بِالْمَعروفِ والنْهي عَن الْمُنكَرِ وبذلك يكونون موضع ثقة وتصديق. فإن لم تكن ضمن مجتمع جماعة تتصف بهذه الصفات وتستمر عليها، فاقرأ على ذلك المجتمع السلام، فقد انتهى أمره ولن يهتدوا إلى الصواب طالما ليس فيهم مثل هذه الجماعة.

وبعكسه إن كان في موضع ما جماعة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فالله سبحانه وتعالى ضامن أن يحفظ أهل ذلك الموضع من كل المصائب السماوية والأرضية. نعم، إن الله سبحانه ضامن؛ إذ ليس غيره يقدر أن يضمن ذلك قط، وذلك بنص القرآن الكريم: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾(هود:١١٧). فأقول استناداً إلى بيان القرآن الكريم وأقوال جميع الأنبياء والأولياء العظام: إن الله جلّ وعلا لا يُنـزل مصيبةً على موضع يؤدّى فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. حتى لو استحق المجتمع ذلك العقاب فالله سبحانه يرفعه عنهم لأجل تلك الجماعة الرائدة، لشدة ارتباط قلوبهم به سبحانه. إذ لا تمضي دقائق عمرهم إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهم في وجل واضطراب مستديمين، حتى استولى عليهم هذا الأمر وأصبح شغلهم الشاغل لا ينفكون عنه؛ في مأكلهم ومشربهم ومنامهم ويقظتهم، يتفكرون: كيف نبلّغ هذا الأمر؟ ومتى؟ ولمن؟ فكأن هذه الحالة سرّ وجودهم. وطالما أمثال هؤلاء من عباد الله الذين نذروا أنفسهم لله يصولون ويجولون في صفوف مجتمع ما، فهم في أمان لا تصيبهم مصائب وبلايا سماوية وأرضية. لذا إن كنا نريد أن نكون في أمان من المصائب السماوية والأرضية فعلينا العودة فوراً إلى تسلم وظيفتنا التي خُلقنا لأجلها.. وعلينا أن نعرف قطعاً أن المصائب النازلة تنـزل بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولئن كنا نريد دفع تلك المصائب والبلايا فلا

يتحقق ذلك إلا بأداء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فلا تحوز عبادة أخرى على هذه الخاصية. وقد يهلك الله شخصاً أو جماعة أو قوماً و يخسف بهم الأرض، وهم يذكرونه ويعبدونه ويتلون الأذكار آناء الليل وأطراف النهار ويطوفون ببيته الحرام إلا أن يكون ذلك الشخص أو الجماعة أو القوم مهمومين بأداء مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقلقين عليها، وعندها يتعهد الله سبحانه تلك البلدة ويحفظ أهلها من الهلاك.

ولأجل هذا نجد في بعض المصادر روايات إسرائيلية مفادها: أن قوم لوط عليه السلام أُهلكوا وكان فيهم ألوف العباد والزهاد القائمين الليل الصائمين النهار، ولكن ما كانوا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر. والله أعلم كم من قائم بالليل وصائم بالنهار كان في أثناء هلاك أصحاب الأيكة قوم شعيب عليه السلام.

وفي مقابل هذا لا نجد قوماً قط أُهلكوا وفيهم مَن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. ولا يذكر التاريخ ولو مثالا واحداً على هذا. وسنفصل هذه المسألة لدى بحثنا عن الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة الواردة في هذا الشأن.

يمكننا أن نقيّم حقيقة التبليغ والدعوة في الأرض والحاجة الماسة إليها من زاوية أخرى بالآتي:

إنه بمقتضى خلافة الإنسان في الأرض، فقد منحه الله سبحانه وتعالى القدرة على التصرف في الأشياء وبوّأه مكانة عالية في خلافة الأرض واهباً له إرادة من إرادته. فلا "أنانية" في أيّ مخلوق إلا في الإنسان. فهو بهذا "الأنا" والخواص الموهوبة له يبلغ إدراك حقيقة هويته وذاته. وذلك بالتعرف على أسماء الله الحسنى وصفاته الجليلة بتجلياتها المتنوعة. لأن "الأنا" المعطى له ما هو إلا وحدة قياسية لِيُشعره بالتملك والحرية، فيستطيع به أن يدرك ربَّه ومالكَه وقدرته على كل شيء، وذلك بوضعه خطوطا افتراضية لمُلكه ومَلَكاته النسبية بالقياس إلى مطلقات صفات الله الجليلة.

وهكذا فإعطاء هذه الميزة والخاصية للإنسان يعني قبوله خلافته منذ البداية. ومعلوم أن الله سبحانه قد خلق آدم عليه السلام بعد خطابه الملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(البقرة:٣٠) وأعطاه حق التصرف في الأشياء وعيّنه خليفة في الأرض. والخليفة لا يستطيع أن يتجاوز الحدود المرسومة له من قبل من استخلفه، تلك الحدود التي رسمتها الأوامر الإلهية المبلّغة إلى أنبيائه الكرام. ومتى ما عمل الإنسان بمقتضى تلك البينات والأحكام الإلهية يكون مؤدياً مهمة الخلافة على أفضل وجه.

يروي الحسن البصري رضي الله عنه حديثا مرسلا يوضح هذا المفهوم: "مَن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفةُ الله في الأرضِ وخليفةُ كتابه وخليفة رسوله".[1]

إن واجب كل إنسان هو معرفة الله سبحانه وتعريف الآخرين به تعالى وإظهاره بأطواره وأحواله أنه لله سبحانه. وكذا من الواجب أيضاً معرفة رسوله وكتابه والتعريف بهما. وكذا تحويل أوامر الله وأوامر رسوله إلى حياة معيشة ضمن هذه الوظيفة. علماً أن هذه الوظائف هي غاية وجود الإنسان. بمعنى أن الإنسان بقدر أدائه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يكون منجزاً وظيفته الملقاة عليه. وجميع هذه الأمور وسائل مهمة لبلوغ الإنسان خطوة فخطوة إلى رضى الله سبحانه وتعالى.

تروي درة بنت أبي لهب رضي الله عنها: "قالت: قام رجل إلى النّبيّ ﷺ وهو على المنبر فقال: يا رسول الله أيّ النّاس خير، فقال ﷺ: خير النّاس أقرؤهم وأَتقاهم وآمَرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأَوْصَلُهم للرّحم".[2]

نعم، إن خير الناس من يأمر بالمعروف وينشر الخير والفضيلة حتى يصبح ويمسي به، وينهى عن المنكر باذلاً قصارى جهده لمنع السيئات، متقياً رب

---

(١) الفردوس للديلمي، ٣/٥٨٦.

(٢) أحمد بن حنبل، المسند، ٦/ ٤٣٢؛ شعب الإيمان للبيهقي، ٦/٢٢٠.

العزة، جاعلا حياته المعاشة وفق ما يقتضيه اندماج أوامر القرآن الكريم والشريعة الفطرية، أي ينظر إلى الأشـــياء والحوادث من زاويـــة الحقائق المنبجسة من القرآن الكريم، شفيقاً على الخلق، واصلاً للرحم. وهذه هي أهم الوظائف.

فإن كنا حقاً نستشعر برباط العلاقة مع إنساننا الحاضر ونعتقد أننا نعطف عليه ونحتضنه بالرحمة والشفقة، فإن أحسن دليل على صدق تصرفنا هذا هو أداء ما يجب علينا من وظائف نحوه، ولا شك أن العمل المقدّم في هذا هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولهذا علينا السعي الجاد لأداء هذه الوظيفة تجاه الإنسانية جميعاً.

ثم إن مَن ينهض بهذه الوظيفة كائناً مَن كان يكون ضمن الثناء الرباني، إذ يقول تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۞ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾(آل عمران:١١٣-١١٤)

بمعنى أن أي إنسان كان إذا ما أدى هذه الوظيفة وكان مؤمناً بالله واليوم الآخر يحظى بالثناء القرآني. نعم، أليست هذه الآية الكريمة وأمثالها تسوقنا إلى الآمال العظيمة؟

إن إنساننا في الوقت الحاضر أحوج ما يكون إلى المحبة والشفقة والكلام الطيب والصوت الأنوس الحنون بدلاً عن القسوة والعنف والضرب والقتل. فالمنتظَر منا اليوم خفض جناح الرحمة والشفقة على الجميع حتى نسمع أنّاتهم في قلوبنا، وتستشعر قلقهم واضطرابهم في نفوسنا، فتشاركهم في الأفراح والأتراح. ومتى ما تحقق هذا فقد تحقق إذن عمل مهم تنتظره الإنسانية.

يشاهد في الوقت الحاضر عدد هائل من النـــاس -يدفعنا إلى الإعجاب- اهتدوا واختاروا الإسلام ديناً لهم ســـواء في الشرق أو في الغرب. ويشاهد

أيضا في داخل البلاد وخارجها عودة إلى الديـــن تحير العقول. فالمساجد والمصليات التي نسيت أو تنوسيت في الأمس أصبحت الآن جزءاً لا يتجزأ من الحياة. وحيث إن هذا الأمر عام وشامل فقد انتشر على الأرض جميعا بسرعة. ولئن كان كل هذا يعدّ في وقتنا الحاضر أمراً ذا بال -وهو كذلك- فإنه يدل على أن القلوب إنما تُفتح وتُغلق بالشفقة. وأن كل ما يثير الحقد والبغض لم يأت بخير سابقاً كما لن يأتي به حاضراً ومستقبلاً.

ولقد سمعت وشاهدت الكثيرين من الذين اهتدوا حديثاً أنهم لو كانوا قد قتلوا بالأمس ما كانوا لينعموا بهذه الأذواق الروحية اللطيفة التي تفيض اليوم من الإيمان، حتى كانوا يرددون مرات ومرات: "الحمد لله، لم نُقتل كفرد من أفراد الجبهة المقابلة في أيام الفوضى والإرهاب التي عمّت البلاد، وإلاّ لكنا خسرنا الدنيا والآخرة".

وإنه لذو مغزى عميق ما يقوله صحابي كريم اهتدى حديثا إلى الإسلام، مخاطباً صحابياً آخر عاتبه ولامه على قتله في الجاهلية أحد أصحاب النبي ﷺ: أنت تلومني لعملي ذاك، ولكن الله جل جلاله قـــد أدخله الجنة بيدي لفوزه بالشهادة، فماذا لو كنت أنا المقتول وأنـــا على الكفر حينذاك؟ بمعنى أنني كنت سأخلد في النار!

وأنتم كذلك إذا ما أصغيتم إلى من نجا من الإرهاب والفوضى واهتدى فلازم مصلاه، تسمعون الصوت نفسه. وفي الحقيقة أنني أترقب بلهفة ماذا يقول الذيـــن لجأوا إلى القوة في حل الأمور إذا ما رأوا أولئك المجرمين السابقين قد أصبحوا اليوم خاشعين لله في صلاتهم يبكون؟

أورد مثالاً حياً لتوضيح هذا الأمر من خير القرون:

عمرو بن العاص عاش عمراً مباركاً طويلاً، كان هذا القائد الجسور والسياسي المحنك قلقاً قلقاً شـــديداً "وهو في ســـياقة الموت. فبكى طويلا وحوّل وجهه إلى الجدار. فجعل ابنه يقول: يا أبتاه أما بشرك رسول الله ﷺ

بكذا ؟ أَمَا بشرك رسولُ الله ﷺ بكذا ؟ قال فأقبل بوجهه فقال: إن أفضل ما نُعدُّ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رســـول الله. إني قد كنت على أطباقٍ ثلاث. لقد رأيتُني وما أحد أشد بغضا لرسول الله ﷺ مني. ولا أَحَبَّ إليّ أن أكون قد استمكنتُ منه فقتلتُه. فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار. فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت: ابسُطْ يمينك فَلْأُبايِعْك. فبسط يمينه. قال فقبضت يدي. قال: "ما لك يا عمرو؟" قال قلت: أردت أن أشـــترط. قال" تشترط بماذا؟" قلت: أن يُغفَر لي. قال" أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله؟" وما كان أحد أحب إليّ من رســـول الله ﷺ ولا أجلّ في عيني منه. وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالا لــــه. ولو سُئِلتُ أن أصفه ما أطقت؛ لأني لم أكن أملأ عيني منه. ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة. ثم وَلِينا أشياءَ ما أدري ما حالي فيها. فإذا أنا مت، فلا تصحبني نائحة ولا نار. فإذا دفنتموني فشنوا علي التراب شنا. ثم أقيموا حول قبري قـــدر ما تنحر جزور. ويقسم لحمها. حتى أستأنس بكم. وأنظرَ ماذا أراجع به رسل ربي."[١]

وقد شهدنا كثيراً، الحامدين الشاكرين الله لعدم موتهم وهم يجتازون دهاليز تلك الفترة المعتمة، وتوجههم إليه سبحانه بالإيمان كتضرع عمرو بن العاص رضي الله عنه وحمده لله لخلاصه من الموت في تلك الفترة. فلئن استطعنا أن نهيئ لهم في الدورة الثانية والثالثة حياة مليئة بأشواق الإيمان نكون قد ضمنّا لهم قضاء لحظاتهم الأخيرة من حياتهم أيضاً تدفق بنشوة الحمد والشكر.

إنه لا حدود للوظيفة. ولا سيما من نـــذر نفسه ليكون فدائي المحبة.. فدائيو المحبة هم الذين نذروا أنفسهم لتحبيب الله إلى الإنسانية جميعاً. لا همّ لهم إلاّ إيجاد سبل تحبيب الله للناس وتمهيد طرق الوصول إلى الحياة الخالدة.

---

(١) مسلم، الإيمان ١٩٢.

وقد كسبت هذه الوظيفة الملقاة على عاتق هؤلاء الأبطال في الوقت الحاضر أبعاداً جادة أخرى؛ لأن غالبية الناس يعيشون حياة مقطوعة الصلة بالله سبحانه على الرغم مما يشاهَد من عودة إلى الإسلام في مناطق مختلفة ومبشرة بالأمل. فإنقاذ هؤلاء من مثل هذه الدوامة أمرعسير جداً وجليل في الوقت نفسه. فكم هو عسير ومؤلم مخاطبة إنسان مصروع لحد الجنون مغمور في مستنقع آسن مميت: كن كما أنت عليه.. كذلك من العسير جداً إيقاظ هذا الجيل الذي يتخبط في هذا المستنقع وجلب انتباهه إلى أن يحافظ على صفاء قلبه وتوثيق صلته بالله. بل هو أعسر منه. ولكننا مضطرون إلى اجتياز هذه المشاق وتخطي هذه الصعوبات. فالمحبة والتسامح من الوسائل المهمة لتجاوز هذه الصعاب. لأن أغلب الناس يواجه إما بالفوز بالحياة الأبدية أو خسرانها. ونحن نريد أن يفوزوا بحياتهم الأبدية. والحال أنهم لم يدركوا بعدُ عِظَم ما هم فيه من المهالك، ولهذا يستغربون مما نبذله من جهد وهمّة على إنقاذهم، بل أحيانا يسخطون علينا ويصدوننا. فالقيام بعمل مماثل يدفعهم إلى حرمانهم من الحياة الأبدية. لذا فإن تصرفاتنا ينبغي أن تخالف تصرفاتهم وأعمالهم؛ إذ لو علموا حراجة وضعهم لأدركوا سبب اهتمامنا وبذلنا الجهود، ولَسَعَوا إلينا سعياً حثيثاً، ولغمروا قلوبنا بالبهجة والسرور. لذا ينبغي الاستمرار في الإيقاظ والتنبيه على الرغم من استغرابهم وصدّهم لنا. وهكذا فعل الأنبياء وكذا الأولياء والأصفياء وهم شموس الإنسانية وأقمارها. فمثلاً:

سيدنا نوح ﷺ، كيف اهتاج وتفجّع من عصيان ابنه في عدم ركوب السفينة معه رغم إلحاحه عليه، ثم كيف توسل إلى الله سبحانه وتعالى ولاذ به لإنقاذه من الغرق حتى حال بينهما الموج؟[1] ففي وقتنا الحاضر مئات من الأحداث أمثال هذه تدفعنا إلى التفجع نفسه.

وسيدنا إبراهيم ﷺ كان يهمه كثيراً ويقض مضجعه عبادة أبيه

---

(١) انظر إلى: سورة هود، الآيات ٤٢-٤٣.

للأصنام، فتوسل بكل الوسائل الممكنة لإفهامه الحقائق.[١] فسلوك الأنبياء هذا يعلّم الشيء الكثير لفدائيي المحبة في عصرنا الحاضر.

وسيدنا الرســـول ﷺ الذي خاطب عمّه الذي حماه طوال أربعين سنة: "أَيْ عَمِّ قل لا إله إلاّ الله كلمة أُحَاجُّ لك بها عند الله".[٢]

هذا الموقف الجليل للنبي المحزون الذي كاد يهلك نفسه لهداية الناس، يجب أن يكون ماثلا أمام أعيننا دون مغادرة. وأنه ﷺ لم يقابل قومَه الذين حاصروه وآذوه بشتى صنوف الأذى إلا بالمحبة والتسامح والرحمة،[٣] قابلهم بالمحبة وأصبح هو الظافر؛ لأنه بهذه المعاناة والمكابدة قدمدّ جسراً يؤدي إلى اغتنام مليارات الناس حياتهم الأبدية.

نعم، إن هـــذه الوظيفة الســـامية وظيفة منوطة تماماً بفدائيي المحبة والشفقة... وظيفة الذين يرغبون عن أذواق عيشهم ليتنعم الآخرون. إنها وظيفة من لا يتنعم حتى في الجنة إن لم يرشد أفراد مجتمعه إلى طريق الجنة.. مثلما قاله مثال الشفقة: "لقد ضحيتُ حتى بآخرتي في سبيل تحقيق سلامة إيمان المجتمع، فليس في قلبي رغَبٌ في الجنة ولا رهَبٌ من جهنم، فليكن سعيد بل ألف سعيد قرباناً ليس في سبيل إيمان المجتمع التركي البالغ عشرين مليونا فقط بل في سبيل إيمان المجتمع الإسلامي البالغ مئات الملايين. ولئن ظل قرآننا دون جماعة تحمل رايته على سطح الأرض فلا أرغب حتى في الجنة، إذ ستكون هي أيضاً سجناً لي، وإن رأيت إيمان أمتنا في خير وسلام فإنني أرضى أن اُحرق في لهيب جهنم؛ إذ بينما يحترق جسدي يرفل قلبي في ســـعادة وسرور."[٤] وهكذا دأب الفدائيين، أما الصديقون فدأبهم: ليكبر جسدي بكبر جهنم لئلا يدخلهاعبد من عباد الله.

---

(١) انظر إلى: سورة الأنعام: الآية ٧٤.

(٢) البخاري، مناقب الأنصار ٤٠؛ الترمذي، تفسير القرآن ٢٨-٢٩؛ النسائي، الجنائز ١٠٢.

(٣) مجمع الزوائد للهيثمي، ٦/٣٥؛ شرح الشفا (للقاضي عياض) لعليّ القاري، ١/٢٧٩.

(٤) سيرة ذاتية لبديع الزمان النورسي، ص ٤٥٧.

إن تحويل هذه الأقوال إلى أفعال عسير جداً، ولكنها جديرة لإفهام مدى الشفقة الواسعة سعة البحار الزاخرة، لحالة جيشان الروح ولو آناً من الزمان.

وما أعظم شفقة الرسول الكريم ﷺ الذي سينادي في هول يوم المحشر "أمّتي.. أمّتي" متضرعاً خاشعاً ســـاجداً لله حالَما يدرك أن من أمته من سيدخل جهنم.. فلا يرفع رأسه من السجود إلا عندما يخاطَب: «يَا محمّد ارفع رأسك سَل تُعطَهْ واشفعْ تُشَفَّعْ».[1] فهذا تعبير عن شفقة ورحمة لا نظير لهما للرسول العظيم ﷺ تجاه أمته. وفي الوقت نفسه فهو مثال لأعظم فدائيي المحبة. فلا يكون فدائي المحبة إلاّ من ينسى حظوظه البشرية وسعادة عائلته ومشاغله الدنيوية في ســـبيل هموم الناس وآلامهم ومن يتعالى على مطالبه. بل لا يمكنه أداء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الوجه الأكمل إن لم يكن فدائي المحبة بحق.

٣- التبليغ أثمن هدية

إذا أردنا أن نعقد نشبه وظيفة التبليغ بتبادل الهدايا بين الناس يمكننا أن نسرد الآتي:

إنكم تتهادون فيما بينكم في المناسبات والأعراس، ولاشك أنكم قبل تقديم الهدية تفكرون ملياً في اختياركم لها ومدى ملاءمتها للشخص المُهدى إليه. وهذا أمر معتـــاد ومفيد في الوقت نفسه؛ لأنكم بها تقضون حاجة وتضمنون محبة. وكذلك الأمر لدى زياراتكم لمن يشاركونكم في الحياة الاجتماعية ورفقائكم في الدرب نفسه، فعليكم أن تكونوا دقيقين في اختيار ما ستقدمونه إليهم بمثل اهتمامكم ودقتكم في تقديم الهدايا.

وعلينـــا ألاّ ننسى أن أحوج ما يحتاجه إنسان اليـــوم: قليل من الكلام

---

(١) البخاري، التوحيد ٣٦، تفسير القرآن ٥؛ مسلم، الإيمان ٣٢٦-٣٢٧؛ الترمذي، القيامة ١٠.

الطيب والنصح لــه. وكذا فإن أثمن هديــة في الوقت الحاضر هي: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وإن أول ما علينا لأجل تحقيق هذه الوظيفة على الوجه الأكمل معرفة الشــخص المخاطَب أو الأشخاص المخاطبين وتشخيص ما يحتاجونه تشخيصاً جيداً؛ إذ بخلافه سيكون الأمر كأنك تريد إلباس ثوب لشخص يضجر منه ولا يُعجبه ولا يليق به وإن كان من أفخر الأقمشة وأجودها. فعلى الرغم من أن هذا الأمر معروف إلاّ أنه يفعل فعل المنكر. فلا يعني شيئا لمن ابتلي بأفكار شتى ومذاهب ضالة أن تعرج به في أرجاء السماوات العلى قبل أن تُصفّي مفاهيمه. إذ كيف تتلألأ نجوم السماء في مرآة وجدان من انكسف قلبُه وأظلمت روحُه؟ ومن هنا فإن تشخيص حاجة أي إنسان كان من أهم الأمور؛ كي يؤثر الكلام فيه وتجدي المحاورة معه، وربما تهزّه هزاً ولعلها تكون سبباً لاسترشاده. ولربما حسراتكم المليئة بالأنّات المؤلمة هذه تكون سبباً في ملء خوائه المعنوي ودفع حاجته المعنوية. ولا هدية أغلى ولا أثمن من تلك الأنّات والاستغاثات المليئة بالأحزان مع القول اللين الذي يعيد إليه الصواب. بل ربما تكون تلك الاستغاثة سبباً في إيقاف جميع تصرفاته الخاطئة في المستقبل وتسوقه مع القول اللين إلى سبيل الاستقامة والصواب. فالهدية التي تكون سببا لتوجّه المرء من السيئات إلى الحسنات هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالذات. وأحسب أنها أجلّ الهدايا.

لقد دامت أيام محاصرة خيبر طويلا دون أن تسفر عن شيء؛ حيث كان يهود خيبر يقاومون الحصار بكل طاقتهم. وذات يوم قال رسول الله ﷺ: "لأعطين الراية -أو قال: ليأخذن- الراية غداً رجل يحبه اللهُ ورسوله، -أو قال: يحب اللهَ ورسولَه- يفتح الله عليه".[1] فهذه أعظم بشارة للصحابة الكرام، إذ كان كل منهم يتمنى هذه المنــزلة. علماً أن كلاً منهم كان

---

(١) البخاري، الجهاد ١٢١، ١٤٣، فضائل أصحاب النبي ٩؛ مسلم، فضائل الصحابة ٣٢، ٣٥؛ الترمذي، المناقب ٢٠.

يفضّل أخاه المؤمن على نفسه في الشؤون كلها، حتى إن بعضهم عندما قُدّم إليه قدح من ماء يشربه نظر إلى مَن حوله فقال للذي جاء به: ويحك كيف أشرب أنا وهؤلاء يلتفون حولي؟ أعطه مَن شئتَ منهم. فإن كان يصح في وقتٍ إيثارٌ ففي مثل هذا الوقت، ومات عطشا.(١) وهكذا كان يؤثر أخاه المؤمنَ على نفسه حتى يقدر أن يملّكه ما يمتلك حباً وكرامة. إلا أن الكلام الذي نطق به الرسول الكريم في هذا اليوم هو بشارة ضمان محبة الله ورسوله، لا يفوّته أحد ولا يُؤْثِر فيه على نفسه أحد أحداً.

والخلاصة أن كل واحد كان يريد أن يحظى بهذه المرتبة. حتى إن سيدنا عمر ذا الفطرة النادرة قال: "ما أحببت الإمارة إلا يومئذ قال فتساورت لها رجاء أن أدعى لها".(٢) ذلك لأن فيها ضمان محبة الله ورسوله ﷺ. لذا لم يغمض للصحب الكرام جفن حتى الصباح انتظاراً لهذه البشارة العظمى، فالجميع يترقبون لمن تُعطى الراية؟ وفي الصباح الباكر انتظروا بلهفة البشارة فأخذوا موضعهم في الصف الأول من صلاة الفجر حيث ستُسلّم الراية عقبها. وفعلا بعد أن أنهى الرسول الكريم ﷺ الصلاة تركزت العيون إليه في انتظار: ماذا سيخرج من بين الشفتين المباركتين؟. نعم، وقد نطق ذلك الفم الذي يفوح بطيب الجنة باسم مَن هو أسعد إنسان في الدنيا وأكثرهم حظاً. فقد آن أوان النطق بهذه البشارة العظمى حيث قد بلغ الاهتياج ذروته. فقال ﷺ بصوته الرقيق الشفيق: "أين علي؟" وعندها عُرف الأمر أن الإنسان المحظوظ هو سيدنا علي ﵁. ولكن مازال هناك أمل يستشرف له الصحابة الكرام وهو غياب سيدنا علي بسبب عينه الرمداء، فأجابوا الرسول ﷺ مساقين بهذا الأمل: إنه هاهنا مريض يرقد. فدعاه الرسول ومسح عينه بإصبعه المباركة بعد أن وضعها في فمه المبارك فطابت تلك العين حتى لم يذق سيدنا علي طوال حياته ألماً في عينه.

---

(١) انظر: شعب الإيمان للبيهقي، ٦١/٣.

(٢) أحمد بن حنبل، المسند ٣٨٤/٢؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ١١٠/٢.

وهكذا وجدت الراية صاحبها المحظوظ، فتسلمها سيدنا علي وتوجّه نحو خيبر. ولكن توقف فجأة مستفسراً من الرسول ﷺ على أي شيء نحاربهم؟ وعلى ماذا ندعوهم؟ فأجابه سيد الكونين ﷺ: "انفذ على رسلك حتى تنــزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه فوالله لأن يهدىَ الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم".[1]

ومنذ ذلك الوقت لم يدخل جيش الإسلام إلى موضع وفي أي وقت كان إلا وكأن كل جندي في أذنه صدى أمر الرسول ﷺ هذا فيتلقاه واجباً عليه تنفيذه.

ففي العهود السابقة نُفّذ نظام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفق هذا الحديث الشريف وأمثاله من الأحاديث الشريفة من جهة، وما عمله الرسول ﷺ في حياته من جهة أخرى. بمعنى أن طلائع الإرشاد يدخلون البلاد التي ستفتح وينشرون الحق ويهيؤن الجو لصالح المسلمين، فإذا استجاب أهل تلك البلاد إلى الأمر فسيدخلون الإسلام وتعدّ بلادهم ديار الإسلام. ولكن إذا قاوموا وجاهوا المرشدين بمعارضة وأعاقوا نشر الإسلام، يُحسم الأمر بالفتح وفق ما ذكرنا سابقا من القواعد. أي يبلّغون الإسلام أولاً؛ لأنهم يعلمون يقيناً أن إرشاد رجل واحد خير من إنفاق ملء الأرض من حُمر النَّعم في سبيل الله.

ومن هنا نرى أن أجمل هدية يقدمها المسلم باسم الإنسانية، هو تحقيقه لوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. نعم، إن أداء هذه الوظيفة بإحسان ولطف لهو أعظم هدية وأثمنها.

---

(١) البخاري، فضائل أصحاب النبي ٩؛ مسلم، فضائل الصحابة ٣٤.

٤- التبليغ يتطلب الاستمرار

إن وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يتطلب الدوام والثبات. وقد وضحت الآية الكريمة الآتية هذا الأمر بقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾(آل عمران: ١١٠) فإذا ما أنعمنا النظر إلى عبارات الآية الكريمة تتوضح أمامنا قرآنية ما ذكرناه من أمور.

إن كلمة ﴿كُنْتُمْ﴾ تعني "أصبحتم" ولا تعني "أنكم سابقاً كنتم".. فاختيار هذه الكلمة ذو مغزى دقيق. بمعنى أن هناك "كينونة"؛ أي الوجود من بعدُ. بمعنى: أصبحتم هكذا. و لم تكونوا هكذا منذ الأزل. ومن المعلوم أن الكيفية الحاصلة في الأزل لا تزول. وإنما الذي يزول هو ما يحدث ويحصل من أوضاع. بمعنى أن دوام ذلك الوضع و ثباته مشروط بموجودية الظروف التي تُكسب تلك الحالة.

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ أي أصبحتم خير أمة بين الأمم. فهذا الحدوث، كسبُ حادث عَرَضي، أي أن زواله ممكن أيضاً. لأن الخير ليس نابعاً من ذاتيتنا قطعاً. إذ لا فرق بيننا وبين المولود في موسكو أو في غيرها من الأماكن، فكلنا مخلوقون من قطرة ماء. وليس هناك إلاّ عامل معنوي وتأثير عَرَضي يوجّه كياننا المعنوي وماهيتنا نحو الخير، بحيث يجعلنا نتميز عن الناس الآخرين. والمقصود هنا من "نحن" هو "الأمة" بكاملها. فهذه الأمة ليست خير أمة من الأزل. بل وُضعَتْ فيها هذه "الخيرية". وليست مما لا تفارقها ولا تنفك عنها. فهناك حالات تحققت من قبلها فأصبحت خير أمة. أي كونها خير أمة لا تعني أنها ستبقى أبداً هكذا. فإن لم تراع هذه الأمة تلك الحالات التي جعلتها خير أمة، ستضيع تلك الخيرية.

فالشرط الأول لتلك الخيرية هي: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَن

الْمُنكَرِ﴾ بمعنى أنكم إذا قمتم بالأمـــر بالمعروف والنهى عن المنكر فإنكم تصبحون خير أمة. ولكن لنرى المفهوم المخالف للآية الكريمة، وهو: أنكم إن لم تقوموا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تصبحوا شر أمة. ومما يؤيد هذا المعنى أحاديث شريفة كثيرة وروايات متعلقة بالصحابة الكرام. فمثلاً:

إن هذه الأمة التي كانت تتفضل على الآخريـــن بتقبيل ركاب أفراسها، ظلت عزيزة الجانب طالما أمرت بالمعروف وهت عن المنكر. ولكن بعد ما تخلت عن هذه الوظيفة المقدسة أصبحت ذليلة مهينة تتوسل بتقبيل ركاب الآخرين. ولعل السبب الأســـاس في الذل والهوان الـــذي يتجرعه العالم الإسلامي حتى لا يؤبَه له في مختلف المستويات الاجتماعية هو تقصيره في هذه المهمة الحياتية.

نعم، إذا لم توف هذه المهمة الجليلة حقها تنقطع برَكة الوحي. وتصبح الأفكار سائبة عقيمة، والمحاكمات العقلية ضعيفة واهية لا تأثير لها. وكل كلمة تفوه بها تصبح جافة غير مجدية، لا تترك أثراً إلاّ الإبهام الذي فيها، حتى لا تبقى فيها رشحة من حقيقة. وكل هذا علامة انقطاع برَكة الوحي. ومتى ما ينقطع مصدر الإلهام في التفكير والتفكر يبدأ التراجع والتقهقر حتى في ميدان الثقافة والتكنولوجيا.

وقد غدا قدراً مقدوراً لا يتبدل للمسلمين المحرومين من بركة الوحي، احتياجهم إلى غيرهم في كل الميادين والساحات حتى غدوا شحاذين سَألَة في أبواب الآخرين، يرقبون ما في أيديهم. والحقيقة أن بداية التقهقر والانحطاط تتزامن مع الهيارنا الداخلي.

وسنسعى في الفصول القادمة لتوضيح هذه المسألة بأمثلة متنوعة كثيرة. والآن نعود إلى الموضوع لتناول القيود الموجودة في الآية واحداً واحداً:

لقد ذكرنا أن مهمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تقتضي الدوام والثبات كما تشير إليه الآية الكريمة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ

تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ والحديث الشريف يؤيد هذا المعنى: "من رأى منكم منكرا فليغيّره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان".[1]

والمنكر: هو كل ما يستقبحه الإسلام، لذا فالمسلم عندما يجابه ما يستقبحه الإسلام فأول ما عليه أن يؤديه هو تغيير ذلك المنكر. أما كيفية التغيير فيختلف حسب وضع المنكر. والمهم في الأمر هو بذل الجهد في التغيير. ذلك لأنه يحتاج إلى الثبات والدوام. والذي يجب على المؤمن في تغييره ذلك المنكر أن يغيّره أولاً بيده، فإن لم يستطع باليد فبلسانه سواءً بالكلام أو بالكتابة. وإن لم يستطع فبقلبه، أي ببغضه ذلك المنكر. وذلك أضعف الإيمان. وليس بعد ذلك من خردل من الإيمان. لأنه يعني الرضا بالمنكر المشاهد.

أما إنكار القلب وبغضه فيمكن أن نفهمه كالآتي: إن الإنسان إذا اغتاظ وغضب على أحد يحاول جاهداً ألاّ يجالسه في مجلس واحد، وألاّ يتبادل معه الفكر والرأي؛ لأن المحبة والعداء لا تجتمعان في قلب واحد وفي آن واحد، ولأن الإنسان لا يميل قلباً إلى مَن يبغضه. فالمؤمن الذي يغضب على منكر ما ويبغضه يحتفظ بشدّه الروحي ويصون قوته المعنوية، ولكن الاكتفاء بهذا القدر من الانفعال ليس هو المطلوب من المؤمن، بل البغض القلبي هذا لا بد وأن يعقبه عمل باللسان أو باليد. علماً أن هذا النفور القلبي الجزئي من المنكر علامة على وجود الإيمان؛ إذ لا يستصوب مؤمن قط ما لا يستصوبه الإسلام من منكر. وحتى إن كان المؤمن يعايش من يرتكبون المنكر في نطاق المواطنة فعليه ألايتغاضى عن هذا والقصور. وبخلافه يُعدّ منهم. ولهذا فالمؤمن يكون دوماً في شدّ روحي وفي قوة معنوية عالية. وهذا الأمر هو ما تُعلمنا الآيةُ الكريمة والحديث الشريف الذي أوردناهما.

---

(١) مسلم، الإيمان ٧٨؛ الترمذي، الفتن ١١.

نعم، قد يؤدى الإنسان هذه المهمة أحياناً باليد واللسان مع زوجته وأولاده، وعندها تتكلم اليد وينطق اللسان. ولكن قد يقتضي الأمر أن تُؤدَّى هذه المهمة باللسان في الأماكن التي تعجز اليد عن الكلام. وعلى الأغلب تنفّذ هذه الطريقة مع الأقربين. ولئن عجز المرء عن هذا أيضاً فعليه أن يراجع علاقاته القلبية معهم. ويمكن أن يطلق على هذا معنى من معاني المقاطعة. لأن الذي يفعل المنكر قد قطع علاقته مع ربه، والمؤمن يأخذ سلوك المقاطع مع مَن قطع علاقته مع ربه ويبتعد كلياً عن كل ما يومئ إلى تقديره واحترامه. حيث إنه مضطر لتنسيق علاقته مع أمثال هؤلاء على وفق ارتباطهم مع ربهم. أي يجب إعادة النظر في العلاقة والارتباط مع مَن قطع علاقته مع الله ورسوله.

وهكذا كان الصحابة الكرام. وكلام سيدنا عمر ﷺ نموذج لما ذكرناه فعندما كانت الاستشارة مستمرة في شأن أسرى بدر قال له رسول الله ﷺ: "ما ترى يا ابن الخطّاب؟ فقال: لا والله يا رسول الله ما أرى الّذي رأى أبو بكر ولكنّي أرى أن تُمَكّنّا فنضربَ أعناقهم فتُمكِّن عليًّا من عَقيل فيضربَ عنقَهُ وَتُمَكِّنِّي من فلان نسيبا لِعُمَرَ فأَضربَ عنقه فإنّ هؤلاء أئمّة الْكفر وصناديدها".[1] علماً أن هذا الرأي لم يُقبل في الاستشارة إلاّ أنه أسلوب يستحق أن نقف عنده من حيث التعبير عن سلوك المؤمن تجاه المنكر، رغم أنه لم ينفّذ.

والمؤمن يتخذ مدى ارتباط من يقابله بربه مقياساً لارتباطه وعلاقته معه، فلا يكون صديقاً حميماً بالمعنى الحقيقي، ولا يوثق علاقته مع المبتوتي الصلة بربهم. وعلامة ذلك في أدنى حدودها بغض المنكر قلباً، ودوام هذا الانفعال القلبي. ولهذا نحن مضطرون إلى أن نتحرك كالصحابة الكرام. فإن كانت محبة الله ومحبة رسوله في كفة وفي الكفة الأخرى محبة القريبين لنا ولكنهم

---

(١) مسلم، الجهاد ٥٨؛ أحمد بن حنبل، المسند ١/ ٣٠-٣٢.

بعيدون عن الله، فمحبة الله ورسوله لا بد أن تُستشعر بكل ثقلها في قلوبنا.

والأمر ليس مسألة محبة فحسب. بل ينبغي أن يكون الحق والحقيقة فوق كل شيء في مسلك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وتُستعمل اليد أو اللسان حسب الاستطاعة، فإن لم يستطع الإنسان كل هذا، يقطع علاقته القلبية ويعيد النظر في علاقات الودّ مع المقابل. وليُعلم أن العلاقة مع أي شخص إن كانت تضادّ العلاقة مع الله ورسوله وتخالفها فسيقلب الأمر عليه دائماً ويهلكه ويفنيه.

والجهة الأخرى من الأمر هي شمول هذه المهمة، بمعنى أن دوام مهمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من مسؤوليات الدولة الدائمة أيضاً؛ لأن الدولة من المؤسسات التي هي في موقع تغيير المنكر باليد، حيث إنها قادرة على تغيير المنكرات باليد كالفحش والخمر والقمار والاحتكار وما شابهها. فهناك مواقع لا ولن تصل إليها يد الفرد، وتصل إليها يد الدولة؛ فالفرد لا يمكنه أن يعاقب الزاني وشارب الخمر وممارس القمار، ولا يستطيع أن يصرفهم بيده عن هذا المنكر.

ولقد ذكرنا آنفاً ميدان مداخلة الفرد. أما هنا فنذكر إنسان العالم الخارجي. فهذه المهمة في هذا الموقع تتعهدها الدولة، لأنها لا تدخل ضمن نطاق تغيير الفرد للمنكر. فهي من مهمات الدولة، وعليها أن تؤديها ما بقيت. فإذا هي أرخت عنان الأمر فالشعب ينبهها ويذكّرها بمهمتها في الانتخابات مثلاً. وهذا أيضاً -من جهة- يولّد جزءاً من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولنضرب مثلاً من خير القرون:

سعد بن أبي وقاص ﷺ أحد العشرة المبشرين بالجنة،[1] والقائد العام للجيش الفاتح لإيران في عهد عمر بن خطاب ﷺ أصبح والياً على البلاد التي فتحها. شكى الناس سعداً إلى سـيدنا عمر بأنه نصب على بابه حرساً،

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير، ٣٦٦/٢؛ الإستيعاب لابن عبد البر، ٥١٣/٢؛ الإصابة لابن حجر، ٧٣/٣.

والحال يجب ألاّ يكون شيء حائلاً بين الوالي والناس. وعندما ســأل سيدنا عمر: هل لديكم شكاوى أخرى؟ قالوا: إنــه لا يُحسن أداء الصلاة!![1] وهذا رأيهم، إذ لا يمكن أن نقبل أو نوافق بأن صحابياً جليلاً كسعد لا يُحسن أداء الصلاة بأركانها. ولكن الذي نريد أن نقف عنده هو إظهار أنه كيف اســتطاع الناس أن يقوّموا الدولة ويراقبوها. فالشعب يقوّم الدولة دائماً، والدولة بدورها تراقب الشعب وتنضبط به، وبهذا تتوازن الأمور ويصان العدل. حيث إن الدولة تنجو أيضاً من الولوج في المنكرات مثلما ينجو منها الشعب.

فإذا ما قيّمنا العالم الإسلامي الحاضر ضمن هذه الأطر، لا يمكننا أن نقول أن الدولة وكذا الناس يؤدون المهمة التي عليهم. فالناس في الوقت الحاضر يرتكبون الرذائل بكل أنواعها، والدول تبقى في وضع اللامبالاة والمتفرجة عليها. حتى أنها تضع قوانين بأسماء وعناوين متنوعة للحفاظ عليها. وأوضح مثال على ذلك ما تُرتكب من منكرات في دول مختلفة حالياً، علماً أن وظيفتها الأساس منع المنكرات والحد من سوء الأخلاق. ولأجل تحقيقها لهذه المهمة، أي منع المنكرات، تستعمل القوانين الرادعة. فالفرد لا يمكن أن يعاقب السارق ولا أن يقيم الحد على الزاني. بل لا يمكن أن يقيم أيّاً من الحدود الجزائية باسمه. فلو أقام كل شخص الحد على غيره فهذا هو الفوضى واضطراب النظام بعينه.

و يمكن أن نستنتج من هذا أن للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حدوداً تخص الدولة لا يمكن أن يتجاوزها الفرد، وحدوداً تخص الأفراد وهي التي يمكنهم أن يؤدوها بالقلب واللسان.

فمثلاً: إفهام الناس العاقبة الوخيمة للزنا والقمار والسرقة والربا والاحتكار والسعي لمنع انتشار مثل هذه المنكرات في المجتمع وظيفة كل فرد ومسؤولية

---

(١) البخاري، الأذان ٩٥؛ مسلم، الصلاة ١٥٨؛ أحمد بن حنبل، المسند ١/١٧٦، ١٧٩، ١٨٠.

اجتماعية. بمعنى أن التغيير باليد تخص رجال الدولة بينما التغيير باللسان هو وظيفة كل مؤمن. وهذه الوظيفة تتعلق بالعلماء أكثر من غيرهم.

أما الذين يكتفون بالوضع الثالث أي البغض القلبي فهم العاجزون عن أداء المهمة على وجهها. فلئن كانت الأمة برمتها تكتفي بالبغض القلبي لِما يُرتكب من المنكرات في العالم فهي إذاً أمة عاجزة بائسة مسكينة.

ويمكن أن نقسّم هذه المهمة على الفرد نفسه كما قسمناها سابقاً على الأمة.

فهناك مواضع يؤدي الفرد مهمته باليد. مثلاً: محل للقمار غير مجاز من قبل الدولة. فالذهاب إلى صاحب المحل وإبلاغه بأني سأخبر الدولة عنكم، يعني إزالة المنكر -من جهة- باليد. ولكن إن كان المحل مجازاً من قبل الدولة والفرد لا يستطيع إنكار هذا المنكر، فعليه أن يفهّم صاحب المحل بلسان لين أن هذا العمل منكر. وإن لم يستطع هذا أيضاً فعليه أن يعيد النظر في علاقاته مع هذا الشخص أي صاحب المحل ويقطع علاقته القلبية معه وينبّه الآخرين على القيام بمثل هذا الإجراء. وليس بعد ذلك أمر رابع.

توضح مما سبق جلياً، أن ﴿كُنْتُمْ﴾ في الآية الكريمة تفيد الدوام والثبات، وأنهما موجودان في جميع الأحوال.

فعلينا إنكار المنكر باللسان والقلب فيما إذا أهملت الدولة والأمة قاطبة واجبها المقدس. ولكن يجب ألاّ ننسى "أن الغلبة على المدنيين (المتحضرين) إنما هي بالإقناع وليس بالإكراه".[(١)]

٥- جوانب التبليغ المتوجهة إلى الحق سبحانه وإلى الخَلق

إن مهمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إما أن تؤدّى لوجه الله، أو تؤدّى بما شرعه الله سبحانه من إحقاق الحقوق بين الناس.

---

(١) صيقل الإسلام لسعيد النورسي، ص ٥٢٧.

إن مسؤولية التبليغ والإرشاد مسؤولية كل فرد تجاه ربه. فكل فرد عليه أن يعتقد بأنه مكلّف بهذه الوظيفة، ويسعى لها سعيه للصلاة. ولا سيما وقد أُهملت هذه الوظيفة، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى استولت المنكرات على المرافق كافة. وهذه المهمة الجليلة تحوز أهمية أكثر من الفرائض الشخصية، إذ لا يمكن الكلام حول الصلاة والزكاة والحج إن لم تُنجز هذه المهمة. وبخاصة في العهود المظلمة التي تُروّج فيها المنكرات ويُمنع المعروف، فالأمة قاطبة تكون مسؤولة في هذه الحالة.

ولا أعلم مهمة أجلّ من هذه المهمة في يومنا هذا، ولهذا أعتقد أن من نذر حياته لهذه المهمة فإن دنياه وآخرته ستكونان عامرتين بإذن الله. فكل شخص مضطر لأداء هذه المهمة الملقاة عليه سواء بالإفهام أو بالكتابة أو بالتأليف. وليؤدّها بأي طريقة كانت إلاّ أن عليه أن يؤديها حسبةً لله، ومنـــزهة عن أغراض سياسية. ومن المعلوم أن تأثير هذا العمل ودوامه يكون بنسبة ما فيه من الإخلاص، وبمقدار ترفّعه عن الأغراض السياسية. ولا يمكن أن يعطي هذا العمل السامي ثماره من دون الإخلاص. فضلاً عن أنه سيكون وبالاً على صاحبه في الآخرة لحرمانه من الإخلاص. ولهذا فعلى القائم بهذه المهمة، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أن يعمله حسب فحوى الحديث: "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ".(١) أي لا بد أن يكون كل جهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ولا يداخله شيء آخر، سواء أكان القائم يقوم ببناء سكن أو مدرسة أو مبيت للطلبة أو أية مؤسسة أخرى تمليها ظروف تلك الحالات في المستقبل، فالغاية الأساس في كل ذلك يجب أن تكون بمستوى يليق بتحقيق هذه المهمة المقدسة.

إن إنشاء مؤسسة وإحداث وحدة دَعَوية لابد أن تملأ الفراغ الروحي لدى الشباب وتعيد بناءهم المعنوي إلى هويته الأصلية وصفاته الأصيل، ليحول دون تسلل الإلحاد والفوضى والإرهاب وانتشارها في صفوفنا. فكل

(١) البخاري، العلم ٤٥؛ الجهاد والسير ١٥؛ مسلم، الإمارة ١٤٩–١٥١؛ الترمذي، فضائل الجهاد ١٦.

حملة من الحملات التي تنهض بها الأمة في سبيل الله هي في الحقيقة كسر لشوكة الملحدين والفوضويين وتفتيت لعزمهم. فهي الحل الوحيد لصدهم فكراً وعلماً ونشاطاً، بل لإزالتهم كلياً بإذن الله.

ولننتبه إلى هذا أيضاً: أننا إن لم نملأ هذا الفراغ و لم نصدع بالحق بوجه الإلحاد والإرهاب والفوضى بأعلى صوتنا و لم نقل لهم: "هذا الطريق مسدود لا يمكنكم عبوره"، فلا يبقى أيّ معنى للجهاد الذي بذله أجدادُنا لصد الروس واليونان والفرنسيين والإنكليز وأمثالهم من فرق الصليبيين عن حدود البلاد. فقد جعلوا أنفسهم وصدورهم هدفاً لطلقات الأعداء ومدافعهم وحرابهم، ودفعوا مئات الألوف من الشهداء. أي لا يبقى أي معنى لهذه التضحيات المعنوية. وأقول هذا من حيث عاقبتنا نحن، وإلاّ فسيجازيهم الله سبحانه وتعالى بالحسنى ولا يضيع مثقال ذرة من أعمالهم.

نعم، إن فتحنا أبواب الأخلاق السيئة والفكر الهدام وما شـــاكلها من الفساد على مصاريعها، فماذا يعني إذن جهاد أجدادنا وتضحياتهم؟ ألا يعني سلوكنا هذا هدر دماء أولئك الشهداء الأبرار هباءً؟

ولن يُهدر هباءً دم الثلاثمائة ألف شـــهيد ممن ضحوا رجالاً ونساءً بأموالهم وأنفسهم في "جَنَقْ قَلْعَة". فالروس الذين خرّبوا البلاد وأهلكوا العباد في "بالان دوكن"،[1] والأرمن الذين خانوا العهد وطعنوا من الخلف، فذهب بسببهم أكثر من مائتي ألف شهيد ســـطروا التوحيد بدمائهم في الثلوج التي تغطي الجبال الشاهقة.. نعم، لن تضيّع دماء أولئك المضحين! وإلاّ ستعاتبنا بشدة "نَهْ نَهْ خاتون"،[2] و"صُوتْجُو إمام"[3] وآلاف من أمثالهم من الأبطال، فكيف ننجي

---

(١) جبل قرب مدينة "أرضروم".

(٢) رمز البطولة للمرأة التركية حيث دافعت ببسالة نادرة مع الجيش العثماني في حرب الروس المشهورة بحرب ١٢٩٣هـ. ولدت في مدينة أرضروم وتوفيت في ١٩٥٥/٥/٢٢ بعد أن عمّرت ٩٨ سنة، ودفنت في مقبرة الشهداء في العزيزية.

(٣) من السبّاقين في حرب التحرير، إذ هو أول من أطلق النار على واحد من الجنود الفرنسيين الذي تعرّض لحجاب النساء في ١٩١٩/١٠/١٣.

أنفسنا من هذه المسؤولية الجسيمة؟. إذن نحن مضطرون أن نظهر تضحية مماثلة في سبيل دعوة أولئك الذين صدّوا هجمات الأجانب وضحوا بأنفسهم راغبين راضين مرضيين لئلا تداس أرض البلاد بأقدام الأجانب.

ولكن الفرق بين تضحياتهم وجهادهم أمس وما نحن بصدده هو فرق من حيث النوعية. فأجدادنا استعملوا في الجهاد السلاح مقابل السلاح، فكان هذا ما يجب أن يعملوه. أما نحن اليـــوم فعلينا أن نجابه الأعداء بالطرق والمناهج التي يستعملونها.. وهو الطريق الأسلم الأوحد للحفاظ على دماء أجدادنا من الضياع والهدر.

فعليك أيها المسلم -من حيث الظروف وطرق النضال والكفاح الحالي- ولأجل إنماء الفكر الإسلامي وإنعاش نشوة العبادة، أن تبني بجنب التكايا والزوايا مؤسسات تتمكن من أن تؤدي المهمات نفسها التي كانت تؤديها في سابق العهود. فتهرع لإمداد الجيل الناشئ في تلك المؤسسات لملء عالمه الداخلي بروح الإسلام والشعور به. وليُعلم أن الجيل المحروم من المعنويات لا يمكنه أن ينهض بأداء أي عمل إيجابي بنّاء. لأن تربية شخصيات ذوى فعالية ونشاط عظيمين منوطة بهمّتك هذه وبجهودك هذه. فإذا ما سعيت سعياً حثيثاً بمنهج معين وطريقة محددة منسقة يمكن أن يظهر في جيلك أنت: أمثال الإمام الرباني والإمام الغزالي والشاه النقشبند ومحمد الفاتح وياووز سليم من العظماء وأمثال الفارابي وابن سينا ومحي الدين بن عربي ومولانا جلال الدين الرومي من نجوم الفكر وأقطاب الأولياء.

فلا يحول شيء من أن تزدهر في حدائقنا أمثال هذه الأزاهير الفواحة. ويكفي أن يتقن البستاني عمله ويبذل أقصى جهده.

ووجه آخر أيضاً للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو أنـــه يجب أداؤه باسم الحقوق المشتركة بين الناس، وهو في الوقت نفسه مسؤولية نابعة من الحياة الاجتماعية. فإن تحقيق الأخلاق الإسلامية والفكر الإســـلامي كي

يُستشعر بها ويُعاش بها هو في ضمن هـــذا القسم من المسؤولية الاجتماعية. فكما تعد من القواعد التي لا تتبدل بالنسبة للمسلم لمعاملاته اليومية في السوق وغيرها ضمن هذه المسؤولية كذلك الحقوق التي يجب أن تصان بين الأفراد، هي ضمن هذه المسؤولية أيضاً. والآن لنوضح الأمر:

إن للإسلام أخلاقاً خاصة بـــه في التجارة والاقتصاد. والمسلم مضطر لإقامة حياته التجارية والاقتصادية ضمن إطار هذه الأخلاق. فلا يمكنه أن يتعامل بالربا ولا أن يحتكر ولا يدخل في المضاربات التجارية المحرمة. فهو مضطر لأن يبقى خارج كل ما هو غير أخلاقي كحماية زمر معينة وإزالة الطبقة الوسطى. وعليه أن يقيم الميزان والتوازن في جميع معاملاته التجارية. فكل ما هو خارج عما يقبله الإسلام لا يعد متاعاً للمسلم، وعليه أيضاً أن يسعى لتكون حياته التجارية مستقرة ومعاشـــة. بل مضطر إلى هذا السعي. وهكذا فللأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هذه الجهة أيضاً.

وبهذا يكون المسلم قد ضرب ضربة قاصمة المراباةَ والاحتكار والسوق السوداء، وغيرها من المنكرات التجارية حتى لا يجد ما يحظره الدين المناخ الذي يتنامى فيه في ذلك المجتمع.

نعم إن للإسلام -كأي نظام آخر- قواعده في مناحي الحياة كلها: في التجارة، في العائلة، في العلاقات الاجتماعية...الخ. فمثلاً: في العائلة يشترط الإسلام النكاح، وبه يتكاثر الإنسان. فلا موضع للزنا والفحشاء في المحيط الذي يعيش فيه الإسلام. لأنهما من الأمراض الخطرة والمدمرة لكيان المجتمع بينما الإسلام يصد أي عامل يحاول تدمير حياة المجتمع.

وفي داخل العائلة حُددت العلاقات التي تربط بين أفراد العائلة، بين الأب والأم والأولاد بحدود قواعد الإسلام. والإسلام دقيق جداً في المحافظة على العائلة وعشها. ولهذا فإن أي فكر يحاول هدم هذا العش العائلى يجد الإسلام يصدّه. ومن المعلوم أن هذه العناية شرط أساس للحفاظ على كيان العائلة والحيلولة دون ضياع النسل.

فالمؤمن -كما يُرى هنا- حينما يسعى من جهة لتحقيق أوامر الإسلام في حياته الخاصة وفيمن حوله من الناس، يحاول من جهة أخرى أن يبعد ما يحظره الإسلام ويحرمه من حياته الخاصة ومن حياة المجتمع. وهذه إحدى طرق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أيضاً.

فالمؤمن إذن -ضمن هذه الطرق المتعددة- في الوقت الذي ينفّذ ما هو الواجب عليه من مهام ليملأ حياته بالفضائل، يحاول أن يملأ مجتمعه الذي يعيش فيه بها كذلك. وعندها يمكن التحدث عن الإنسان الفاضل بمعنى الإنسان الكامل والمجتمع الفاضل الناشئ من هؤلاء الأفاضل والأمة الفاضلة... ومرحلة أخرى، الدنيا الفاضلة التي تتركب وتنسج من هذه المجتمعات والأمم. وهكذا. ينتظر العالم ما يحيكه المؤمن من الدنيا من خمائل مطرزة، وبناء مثل هذه الدنيا منوط بالعمل، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فالأفراد في هذه الدنيا التي نرغب في إنشائها ونطمع أن نراها يسعى كلٌ منهم ليفيد الآخرين، وتحاول الأمة أن تجعل الدنيـــا جنة نعيم لها وللأمم الأخرى. والمنافسة في الفضائل هي الأســـاس في هذه الدنيـــا. والمجتمع والعالم الذي تتسابق فيه الفضائل، يسيطر فيه "نحن" بدلاً من "أنا" فتُقتل فيها الأنانية التي يعبر عنها الشاعر "إذا متّ ظمآن فلا نـــزل القطر" و تُدفن هذه الأنانية المحضة إلى غير بعث. وتنشأ وتزهر فيها "إذا مات أحدهم ظمآن فلأكن أنا". هذا المجتمع هو الذي يرى النمو والإنبات. وليسعد كل الناس وسأكون سعيداً بسعادتهم، ولكن لأكن أنا آخر مَن يسعد. هذه الفكرة هي التي تعم الجميع وتربط أفراده الواحد بالآخر. والشعور بالصداقة والمحبة يعم الجميع ويعيش الكل في هذا الجو ويُنسى العداء والبغضاء.

والحقيقة أن كل هذا الكلام المذكور موجود في الفكر الإسلامي الأقدس الذي يشكل بناءنا الروحي. وحينما يفهم الناس هذا النظام ويعمل في أرواحهم إذا بعالم الفضيلة يظهر إلى الوجود بنسبة معايشتهم له.

والشرط الأساس في هذا: لا بد أن تدرك الدنيا كلها هذه النتيجة وتعيها وتشاهدها في الواقع، وهذا سيحدث كذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وتنتظر هذه الوظيفة -في مستوى الفرد والعائلة والمجتمع- حالياً تلك الأيدي المباركة التي ستمتد إليها.

٦- التبليغ والعلاقة بين الفرد والمجتمع

يقول الرسول الكريم ﷺ في حديثه الشريف: "المسلم مَنْ سَلِم المسلمون من لسانه ويده".(١)

يفهم من هذا الحديث الشريف: أن المسلم لا يمكن أن يستخف بمال أي إنسان كان ولا بعرضه ولا بشرفه ولا بكرامته، وكذلك لا يمكنه أن يتصرف فيما يومئ إلى التعرض لحياة أي إنسان كان. فلئن كان الزوج هو وحده له الصلاحية على مس ما يُعدّ من المحارم في الدين لدى المرأة، فهل يتصور أن يعقد غيره علاقة معها؟ ثم إن تجول المرأة متبرجة مكشوفة المحارم إثم يخصها وحدها. إلاأنه لا يسوّغ تبرجها هذا نظر الأجنبي لها. ولئن كان المسلم ينظر إلى هذه المسألة بهذه الدرجة من الحساسية والدقة فهل يمكن أن يرتكب إذن ما وراء هذا النظر من الحرام الذي يعدّه الدين من الكبائر. ولاشك أن حوادث فردية تقع في كل مجتمع، ولكن المسألة هنا تتعلق بالتقصد والتمادي في الأمر.

ولقد تعرفت على نمط من الشباب لو تعلق بنظرهم حرام في أثناء تجوالهم لضرورة في السوق يتصدقون بيوميتهم كفارةً لذلك الذنب فراراً إلى باب التوبة. وفي الحقيقة لا بد أن يتحلى كل مسلم بمثل هذه الأخلاق. حيث إن المسلم مَن يطمئن إليه المسلمون ويأمنون جانبه. أجل إن المسلم لا يمكنه أن

---

(١) البخاري، الإيمان ٤-٥؛ مسلم، الإيمان ٦٥؛ أبو داود، الجهاد ٢.

يمد يده حتى إلى لقمة واحدة لغيره. ولا يفكر بل ولا يخطر بباله أن يستفيد بغرام واحد من ملء الأرض ذهبا لغيره. ذلك لأنه إنسان الأمان والثقة. وما المجتمع الإسلامي إلا مجموع أمثال هؤلاء الأفراد. ولا يحق لأحد أن يتخوف من مثل هـــذا المجتمع. والحديث الشريف المذكور أعلاه يشير بالمفهوم المخالف: أن الكافر هو من لا يسلَم الناس من لسانه ويده. نعم إن البشرية محقة في الوقت الحاضر إذا ما تخوفت وقلقت -مهما كانت- من كل إنسان يمثل الإلحاد، حيث لا يوجد في أي منهم الشعور بالأمان والاطمئنان. أليست الحوادث التاريخية شواهد حية على هذا؟ أما الإسلام فيربي منتسبيه بأخلاق فاضلة بحيث يتميزون عن الآخرين في بنيتهم الروحية وتصرفاتهم، وينبغي أن يكون هكذا. ذلك لأن المجتمع الذي يعيش فيه قد سد جميع أبواب الأخلاق السيئة بكافة أنواعها، واتخذ موقفاً تجاه جميع السيئات التي يعدّها الدين من المنكرات. وحيث إن الأمر هكذا فالأمم أو المجتمعات التي ينشؤها المسلمون يفوح منها شذا الروح والريحان فهي متميزة كليا عن المجتمعات الأخرى التي تصول فيها الرذائل. نعم إن من أولى واجبات المسلم التحلي بهذه الخصال أولا ثم نقلها إلى الآخرين.

بمعنى أن هذا الواجب لابد أن يجرى في مستوى الفرد أولا ثم في مستوى المجتمع ثم في مستوى الدولة. ومن المعلوم أن المجتمع المنوّر يتكون من أفراد منورين. ومثل هذا التشكل لا يقتصر على جذب الأفراد إليه فحسب بل يجذب أيضا التكتلات والشعوب الأخرى معا. ولعل أوضح مثال لهذه الحقيقة الكلية إسلام النجاشي:

النجاشي حاكم الحبشة، وقـــد اســـتجار به ثلة من المسلمين فحماهم، وتفرس في أقوالهم وأطوارهم بمرور الزمن وفي النور الذي يشع من ناصيتهم ومن طفح الإيمان في صدورهم طريقا إلى الحقيقة، فاسلم حالاً للرسول الكريم ﷺ. وفضلا عن أن هذا ثمرة من ثمرات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قصر النجاشي، فإنه نتيجة لتنفيذ ما يمكن أن يقولوه إلى النجاشي

في أنفسهم أولا. أو بتعبير آخر: إنه بقدر ما أعجب النجاشي بأقوالهم فإنه أعجب بالفضائل التي تنم عنها أطوارهم وحالاتهم الروحية.

إن الرسالة التي بعث بها النجاشي إلى الرسول الكريم ﷺ مشحونة بأدب محض. إذ استهل رسالته: "إلى محمد رسول الله من النجاشي.." فقدم اسم الرسول على اسمه أي قَبِل عظمته فضلا عما في ثنايا الرسالة من كلمات التقدير والاحترام، وكيف ماجت في روحه فجأة أمواج الإيمان.. كل ذلك يجعل تلك الرسالة تستحق قراءتها مراراً.

فما أعظم قوله: "أشهد أنك رسول الله.. فإني لا أملك إلاّ نفسي وإن شئت أن آتيك فعلتُ. يا رسول الله، فإني أشهد أنما تقول حق".[1]

وفي يوم آخر يقول وبحسرة بالغة: "أشهد أنه رسول الله وأنّه الذي بشر به عيسى بن مريم، ولولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أحمل نعليه!!"[2]

إن الذي دفع النجاشي إلى هذه الحالة، الحياة الإسلامية في تلك النخبة من الصحابة الكرام وما كانوا يتفوهون بها من كلمات طيبة نـزيهة. فالذين ينقلون الحادثة يروونها على الصورة الآتية:

لقد ضاقت مكة بالمسلمين. ولم يبق أحد من المسلمين يأمن على حياته وماله وعرضه وشرفه. ففي هذه الأثناء أُذن بالهجرة إلى الحبشة. وهاجر مجموعة من المسلمين إليها واستُقبلوا هناك استقبال ضيف عزيز كريم أكثر مما كان يُنتظر. ولكن مشركي مكة كانوا قد عقدوا العزم على جعل الدنيا ضيقة على المسلمين. وتشاوروا فيما بينهم وأرسلوا وفدا إلى الحبشة برئاسة الداهية السياسي عمرو بن العاص -الذي أصبح ؓ فيما بعد من كبار الصحابة- وحاولوا إثارة النجاشي على المسلمين كي يتخلى عن حمايتهم.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير، ٣/١٠٥.

(٢) أبو داود، الجنائز ٥٦؛ السنن لسعيد بن منصور، ٢/٢٢٨؛ أحمد بن حنبل، المسند ١/٤٦١؛ المستدرك لحاكم النيسابوري، ٢/٣٣٨.

فيكونوا قد خيبوا أمل المسلمين مرة أخرى.

أنصت النجاشي إليهم مليا. وقد استفرغوا كل ما لديهم من افتراءات في سعيهم للتأثير على مشاعر النجاشي، بيد أن النجاشي كان مثالا للمروءة، فلم يطرد من استجار به بمجرد اتهامات رخيصة تافهة. وأوضح فكره هذا للوفد القادم من قريش، وأفاد بجلاء أنه لن يحكم بشيء ما لم يستمع إليهم أيضا. وعلى ضوء هذا دُعي عدد من المسلمين إلى القصر وكان جعفر بن أبي طالب ﷺ يترأسهم واختاره المسلمون ناطقا باسمهم، وهو من أشراف مكة وابن عم الرسول ﷺ والأخ الكبير لسيدنا علي ﷺ. وكان المسلمون قد اختاروه ناطقا باسمهم إذ كانوا صفا واحدا ووحدة متحدة كأنهم كيان واحد. وهذه الرابطة الوثيقة بينهم كانت ملفتة للأنظار.

كان على الداخل أن يسجد للملك تعظيماله، وكان هذا يعدّ من أصول التشريفات، إلا أن المسلمين لم يسجدواله، إذ لا يجوز للمسلم أن يسجد لغير الله جل جلاله. وقد سرّ وفد المشركين تصرف المسلمين هذا، حيث فكروا أن النجاشي سيغضب عليهم ويطردهم من ديوانه. ولكن النجاشي – كما ذكرنا– كان مثالا للفضيلة. ويا ليت الذين يقولون بالديمقراطية في أيامنا هذه يمتثلون بالديمقراطية التي مارسها وعاشها هذا الملك الحبشي قبل أربعة عشر قرنا، ولكان فيما يدّعونه حظ من الحقيقة.

سأل النجاشي المسلمين بعض الأسئلة، فأجابه جعفر ﷺ: "أيها الملك: كنا قوماً أهلَ جاهلية؛ نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرْحَامَ، ونسيء الجوار، يأكل القويّ منا الضعيف. فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسـولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنـا نعبد نحن وآباؤنا من دونـه من الحجارة والأوثان، وأمَرَنا بصدق الحديث، وآداء الأمانة، وصلة الرحـم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقولِ الزور، وأكْلِ مالِ اليتيم، وقذْفِ المحصنة. وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به

شيئاً، وأمرنـــا بالصلاة والزكاة والصيام. قال: فعدد عليه أمور الإســـلام فصدقناه، وآمنا بـــه واتبعناه على ما جاء بـــه فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا. فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله. وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث فلما قهرونا وظلمونا وشقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك!".

ثم استرســـل جعفر بالكلام والنجاشي ينصت ملياً. فسأله عن ســـيدنا عيسى ومريم عليهما السلام، فتلا عليه جعفر رضي الله عنه سورة مريم في خشوع ولم يتمالك النجاشي نفسه فأجهش بالبكاء. "فضرب النجاشي يده إلى الأرض، فأخذ عودا، ثم قال: ما عدا عيسى بنُ مريم ما قلت هذا العود".[1] نعم، لا فرق قطعا لأن الوحي النازل على جميع الأنبياء صادر من منبع واحد.

ردّ النجاشي المشركين مع ما حملوا إليه من الهدايا. وأعلن حمايته للمسلمين، لأنه شاهد أشعة عظيمة من الفضائل تشع من المسلمين رغم اللقاء القصير معهم. وكان هذا كافيا لاختياره الإسلام دينا له.

وإذا ما عدنا إلى الموضوع، نجد أن هذا الواجب المقدس السامي إن لم ينفّذ في حياة الفرد، فإن انتظار نشوء مجتمع فاضل لا يعني غير الخيال. وذلك للعلاقة الوطيدة بين الفرد والمجتمع، حيث إن المجتمع يتشكل من الأفراد. ولهذا فالمجتمع الفاضل هو الذي يتحلى أفرادُه بالفضائل. ومن جهة أخرى فكما أن الأفراد مضطرون إلى صيـــانة الفضائل التي كسبوها فالمجتمعات أيضا مضطرة إلى صيانة الفضائل التي كسبتها من قبل. وكما ذكرنا آنفا، إن الفضائل التي يكسبها الإنسان ليست أزلية كما أنها ليست

---

(١) أحمد بن حنبل، المسند ١/٢٠١-٢٠٢؛ السيرة لابن هشام، ١/٣٥٨-٣٦٢؛ البداية لابن كثير، ٣/٨٨؛ دلائل النبوة لأبي نعيم، ١/٢٤٣-٢٥٣؛ البيهقي، دلائل النبوة، ٢/٣٠١-٣٠٣.

أبدية. فهي كينونة... بمعنى أن الفضيلة والخير المكسوب يقتضي الدوام على الشروط التي أكتسبت الفضيلة بسببها. ولا أحد غير الأنبياء عليهم السلام لهم الضمان، فلقد مُنح لهم هذا الضمان كأجرة مقدمة لما يحرزونه من ظهور في أثناء جهادهم بإرادقم لكسب الفضيلة، لأن الله سبحانه قد علم بعلمه الأزلي ما يصلون إليه في المستقبل وكافأهم مسبقا بمنح إلهية. ولهذا فغير الأنبياء مهما كانت منـــزلتهم ومقامهم مضطرون على الحفاظ على ما كسبوه من مقام، وإلاّ فالمآل الضياع والتقهقر دائماً.

والنتيجة التي نحصل عليها من هذا الاستطراد هي: أن الفضائل التي يُكسبها الأمر بالمعروف للفرد والمجتمع تدوم ويحافَظ عليها بالأمر بالمعروف أيضا. وبخلافه سيبدأ التقهقر والتراجع تدريجياً حتى ينتهي بانتهاء ذلك المجتمع القاصر. وللحيلولة دون بلوغ هذه النتيجة لابد من إذكاء القوة المعنوية وجعلها في حيوية مستمرة. وهذا يحصل أيضا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. بمعنى أن هذه الوظيفة المقدسة حياةٌ للفرد وللمجتمع على السواء، وفي الوقت نفسه شرط للحفاظ على الحياة. ولعل هذا هو السبب في اشتراط سيد المرسلين ﷺ الأمر بالمعروف عند قبوله البيعة من بعض الأشخاص.

فمثلا قد قَبِل بيعة جرير بن عبد الله البجلي ﷺ على هذا الشرط. يقول هذا الصحابي الجليل: "بايعتُ رسولَ الله ﷺ على إقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة والنّصح لكلِّ مسلم".[١] وهذا يعني بوضوح: أن عليك القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فضلا عن ذلك فإن هذه الوظيفة المقدسة تُكسب الإنسان فضائل العبادات الأخرى أيضاً، لأن الذي يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أي الذي نذر نفسه لهذا الأمر الجليل قد زيّن نفسه أولاً بتلك الفضائل لدى قيامه بهذه الوظيفة واستعد للتحلي بأية فضيلة أخرى. إذ إنه يؤدي أصعب

---

(١) البخاري، الإيمان ٤٢؛ مسلم، الإيمان ٩٧؛ الترمذي، البرّ والصلة ١٧؛ الدارمي، البيوع ٩.

الأمور وأثقلها، عمل الأنبياء بل غاية حياتهم. فلاشك أن مقامه أيضاً يكون في مستوى رفيع.

انظروا إلى القرآن الكريم كيف يشير إلى ثقل هذه الوظيفة المقدسة لدى ذكره وصية لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾(لقمان:١٧).

يتبين من الآية الكريمة أن سيدنا لقمان يعظ ابنه بإقامة الصلاة أول ما يعظ ثم يعقبها بالقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وكأنه يريد أن يقول لابنه:

يا بنيّ إن من لا صلاة له لا جهاد له، فالصلاة شرط لقبول جميع العبادات، لذا عليك أن تؤدي عبوديتك هذه تجاه ربك أولاً، ثم اسع بما عندك من جهد أن تنشر حولك هذا المعروف وتسعى لمنع المنكر والنهي عنه. وفي أثناء قيامك بهذا العمل ستجابهك أنواع شتى من النوازل والمصائب. فتحمّل بالصبر تجاهها منذ البداية وفي أول الطريق.

إنه لا مفاجأة ولا عجب لصاحب أية دعوة كانت مجيء البلايا ونزول المصائب. بل هي منتظَرة، لأنه لم يحدث خلافه لحد الآن. ذلك لأن هذا العمل من المهام الجسيمة وما لا يتحمله إلاّ أولو العزم من الرجال و ما لا يقدر على جزائه إلا الله سبحانه وتعالى. وستعلو بهم هذه الأمور العظام ليكونوا مع أولئك العظام، ولكن سيتعرضون هنا للبلايا والمصائب التي هي ملازمة لأولئك العظام. وما عليهم إلا التجمل بالصبر اللائق بأولئك العظام.

يبين الرسول الكريم ﷺ في حديث شريف أهمية هذه الوظيفة الجليلة إذ يقول: "خيارُ أمّتي بَين جُهَلائهم في بَلاءٍ وَجِهادٍ".[1] وحديث آخر يؤيد هذا الأمر: "المسلم إذا كان مخالطا النّاس ويصبر على أذاهم خير من

(١) الفردوس للديلمي، ٢/١٧٤.

المسلم الّـــذي لا يخالط النّـــاس ولا يصبر علَى أذاهم".[1]

نعم، القيـــام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مجتمع فاسد آسن، عبادة أفضل من انكفاء المرء على نفسه متفرغا للتعبد في زاوية قصية بعيداً عن المجتمع. ولـــو لم تكن هذه الوظيفة أفضل من العبادة الشخصية لكان الرســـول الكريم ﷺ لا يغادر بيته ويمكث منشغلا بالفيوضات والتجليات الربانية وما كان يخالط الناس قط. وكذا لو لم تكن هذه الوظيفة أفضل من غيرها من الأعمال ولاســـيما اعتزال الناس لما خوطب بـــ﴿ يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنذِرْ﴾(المدثر:١-٢).

الدين كله نصيحة، الدين أمر بالمعروف ونهي عن المنكر. وقد قال الرسول الكريم ﷺ: "الدّين النّصيحة. قلنا: لمن؟ قال: للّه ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامّتهم".[2]

وعلى هذا فالمؤمن يعرّف بالله دون توقف وهذه القضية قضيته الأساس. بل يفرغ نفسه لهذا العمل حتى يجافيه النوم ويفقد شهيته للطعام في يوم لم يتمكن من تعريف الآخرين بالله ولا يعدّ ذلك اليوم من حياته.

وكذا سيكون التعريف بالرسول ﷺ شغله الشاغل فيسرد ما تحمله ﷺ في سبيل هذه الدعوة من مشاق ويتحدث عن هذا ويتحدث.. حتى يضمن أن يتخذه السامعون قدوة في أعمالهم كافة.

وكذا سيكون تعريفه بالقرآن الذي أنـــزله الرب الجليل دستوراً وهادياً للعمل. وأن عزنا وكرامتنا منوطتان باعتصامنا به. هذا ما نفهمه من شهادة التاريخ، إذ ما أن اعتصم به العالم الإسلامي وعمل بأحكامه إلاّ وجال في الذرى، وبخلافه ما إن أرخى يده عنه حتى تفرّق شذر مذر.

---

(١) الترمذي، القيامة ٥٥؛ ابن ماجه، الفتن ٢٣؛ أحمد بن حنبل، المسند ٢/٤٣.

(٢) مسلم، الإيمان ٩٥؛ البخاري، الإيمان ٤٢؛ أبوداود، الأدب ٥٩؛ الترمذي، البر والصلة ١٧؛ النسائي، البيعة ٣١.

أرى هنا ضرورة تقتضي البيان وبحسرة في قلبي، أقول حسرة وحزناً لأنني كلما فكرت فيه أجدني متألماً أشد الألم وهي:

إن مسلمي يومنا الحاضر أصبحوا لا يفقهون شيئا من كتاب الله. فهم في واد والقرآن في واد آخر. وغدا ارتباطهم بالقرآن شكلياً محضاً. فتجد الذي ينهر مَن لم يرفع القرآن فوق صدره احتراما، وهو في حياته المعيشة يخالف القرآن مخالفة كلية. فالذي لا يتخذ قرآنه دســـتور حياته ولا يجعل الاحتكام به غاية حياته، يعاقب في الآخرة عقاباً أليماً مهما كان عنوانه وموقعه. وحتى لو احتفظ بالقرآن في الدنيا في محافظ أو علّقه في موقع رفيع، بل ربما سيُعلّق هو كذلك من قفاه أو رجليه، لمخالفته ذلك القرآن وارتكابه الآثام في حياته الدنيوية.

ليت شعري هل يمكن أن يرفع ستار الغيب ولو للحظة ليرى هؤلاء الناس من وعاظ ومفتين وكتّاب ومحررين ومفكرين وقرّاء ومستمعين ومعلمين مصير بُعدهم عن القرآن وهجرهم له... ولكن هذا الأمر يعني سلب الإنسان من إرادته وهو مخالف لسر الامتحان والتكليف.

قلنا: رفع ستار الغيب لمشاهدة لوحات الآخرة. ولكن أظن أن قليلاً من التفكير كاف لرؤية عاقبتنا في الدنيا، أليست واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار كيف ندفع ثمن بقائنا بعيدين عن القرآن؟ ولمن؟. تُرى أي ذل ننتظره بعد هذا الذل ليكون وسيلة لاعتصامنا بالقران ودفعنا إليه؟. نعم لا بد أن ينتهي هذا الوضع الأليم ولابد أن يعلم العالم الإسلامي أن المنقذ الوحيد هو الاعتصام بكتاب الله. وما بُعث النبي العظيم إلاّ لإفهامنا هذا الأمر. وسترتفع وتعلو الإنسانية بمقدار استيعابها لأوامر كتاب الله.

والنتيجة أن الإنسان، في المستوى الفردي من جراء قيامه بهذه الوظيفة المقدسة يصبح وسيلة لإيقاظ الأشخاص على صوت الإيمان، ينال ثواباً مثل جميع ثوابهم. يعني: أنكم إذا أصبحتم وسيلة لإقناع شخص ما إلى أهمية

الصلاة ووجوب الزكاة وحكمة الصيام وضرورة الإرشاد وما شابهها من الأمور، فالثواب الحاصل مما يفعله و سيفعله ذلك الشخص من هذه الأعمال يُكتب لكم مثل ثوابه دون نقصان. ذلك "إنّ الدّالّ على الخير كفاعله"(١) كما قال من أوتي جوامع الكلم ﷺ. فضلاً عن ذلك فإن الثواب الحاصل مما يغنمه ذلك الشخص الذي هداه الله إلى الإيمان بإرشادكم، يكتب لكم مثل ثوابه أيضاً. وهذا يبين لنا مدى أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حيث العمل الصغير في هذه السبيل يورث الإنسان أثوبة إلى هذا الحد. يقول الرسول ﷺ:

"مَن سنّ في الإسلام سُنّةً حسنة فَعُمِل بها بعده كُتِب له مثلُ أَجرِ مَن عَمِل بها ولا يَنقُص من أجورهم شيء ومَن سَنّ في الإسلام سنّة سيِّئةً فَعُمِل بها بعده كُتِبَ عليه مثلُ وِزْرِ مَن عمِل بها ولا ينقص من أَوزارهم شيء".(٢)

فكل من سار في ضوء هذه السنة يأخذ ثوابه، سواء أكان من الأقارب أو البعيدين. لأن فتح نهج جديد وسنّ سنة حسنة كنفخ حياة في حياتنا الاجتماعية الميتة، وحتى إذا فارقنا هذه الحياة ورحلنا من هنا، فإن تلك الحسنات تظل في سجل حسناتنا. ويمكننا أن نقيس الحسنات الأخرى على هذا.

يجب ألاّ ننسى أن يوماً ما سيحملوننا على محمل بلا روح و يضعوننا في حفرة ويهيلون علينا التراب، وحتى أقرب الناس إلينا من أب وأم وصديق وأخ وأحباب سيتركوننا هناك. وستنــــزل علينا غدقا من تلك الأثوبة التي ترد من السنّة الحسنة التي سننّاها. وستجعل قبرنا غارقا في بحر من الأنوار. وفي هذه الحالة سنكون أحياءً إلى يوم القيامة بتلك البذور التي بذرناها في الدنيا مع أننا أموات من حيث أجسامنا.

تأملوا في سيدنا محمد ﷺ وقد ارتحل إلى العالم الآخر منذ أربعة عشر قرنا

---

(١) الترمذي، العلم ١٤.

(٢) مسلم، العلم ١٦؛ الترمذي، العلم ١٥؛ أحمد بن حنبل، المسند ٣٦١/٤.

من الزمان، ولكن مَن ينعم بالحياة مثله ومَن هو حي مثله؟ إذ يفتح يوميا ولا يغلق أبداً سجل حسناته بجميع صحائفه وتُكتب له الأثوبة؟ ثم يليه مَن وضع لبنة من ذهب في بناء الحياة الاجتماعية، وهم يربون على الملايين وكلهم أخذوا ثوابهم بنسبة ما أصبحوا وسيلة لسنّة حسنة. نعم إن رحمة الله واسعة وحسب المرء أن يسلك الطريق الذي يوصل إليها.

يقول الرسول الكريم ﷺ: "كلُّ الميّت يختَمُ على عمله إلاّ المُرابط فإنّه يَنْمُو له عملُه إلى يوم القيامة ويُؤَمَّنُ من فَتَّان القبر".[1]

نعم "المرابط" الذي نذر نفسه في سبيل الحق، ولا يفكر في شيء غير دعوته، وجعل غاية حياته سد الثغرات التي قد تتسرب منها المهالك والمخاطر إلى بلاده، ويعدّ تبليغ ما منّ الله عليه من يُمن وبركة إلى الآخرين أعظم وظيفة. فإنسان كهذا لا يُغلق سجل حسناته قط، بل ينمو ويربو كل حين. وفي تاريخ الإرشاد والتبليغ مَن نثر ملايين من بذور الإرشاد ثم ارتحلوا دون أن يشمّوا رائحة وردة منها. ومَن بذر تلك البذور وشاهدوا اخضرار الأرجاء بالربيع الزاهر بعد خمسين سنة. فأثوبة جميع هؤلاء حولت قبورهم إلى مركز إشعاع ومنبع نور.

نعم، إن الله سبحانه وتعالى يربي أعمالهم وينمّي حسناتهم ويعصمهم من فتنة القبر وينـــزل عليهم سيولاً من الأنوار. بمعنى أن هؤلاء قد ماتوا بجسمانيتهم فحسب، وهم أحياء من حيث الثواب، بل أكثر حياة ممن يسمّون أحياء و لم يوفّقوا إلى مثل هذا العمل.

٧- الإرشاد وموقف المؤمن والمنافق

المؤمن يعلّم الفضيلة ويلقّنها باسم الحق والحقيقة في المجتمع الذي يعيش فيه بدءاً من أقرب الدوائر إليه. وهذه نتيجة ضرورية لإيمانه. إذ سلامة المسلمين

---

(١) أبو داود، الجهاد ١٦؛ الترمذي، فضائل الجهاد ٢.

من يده ولسانه تولد هذه النتيجة. ومن جهة أخرى فالمؤمنون كالجسد الواحد كما ورد في الحديث الشريف. فإذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى. ومن المعلوم أن ســلامة كل عضو من النقص والعوز تولد سلامة الجسد كله. فأمر فطريّ وطبيعي جداً أن يهتم المؤمن بهموم المؤمنين، ويتألم بآلامهم، وينشرح بسرورهم، ويسعد بسعادتهم.. أليسوا أعضاء جسد واحد؟ وبالأخص إن كان هذا التألم والسرور يتعلق بالعالم الأخروي الأبدي. فكيف يظل المؤمن غير مبال بذهاب أخيه إلى الجنة أو إلى النار؟ لذا فإن قيام المؤمن بالواجب المقدس أي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تجاه أخيه المؤمن صفة ملازمة له. وإلى هذا المعنى يشير القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(التوبة: ٧١).

نعم، المؤمنون ذكراناً وإناثاً بعضهم أولياء بعض، ومقتضى هذه الموالاة هو الأمر بالمعروف أي الذي يراه الله حسناً، والنهي عن المنكر وهو ما يراه الله قبيحاً.. وفي الحقيقة لا يتعامل المرء مع وليّه بغير هذا التعامل.

والمهم هو ألاّ ينسى المؤمن نفسه في أثناء قيامه بهذا العمل أي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ عليه أن يحقق الإسلام أولاً في نفسه، حتى يجعله جزءاً من طبعه وخلقه، فيقيم صلاته بإتقان ويؤتي زكاته على أفضل وجه.. أي يطيع الله ورسوله ﷺ في كل شأن من شؤونه. فإذا ما أصبح كل فرد في المجتمع على هذه الصورة فالمجتمع بدوره ينتظم. وعندها تحتضنه الرحمة الإلهية بكل سعتها ويكلأ أفراده في كنفه سبحانه فينبعث جو رحماني في ذلك المحيط.

ومقابل هذا النمط السامي للمجتمع وهـــذه النماذج الفريدة الخالصة للمؤمنين يصور القرآن الكريم المنافقين كالآتي: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ

بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(التوبة:٦٧).

وكما يبدو من قوله تعالى:﴿بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أن القرآن الكريم لا يستعمل كلمة "الوليّ" للمنافقين، لأن الولاية لا وجود لها بين المنافقين، إذ المنفعة هي الرابطة الوحيدة التي تربطهم. فإن أصيبت منافعهم بضرر طفيف إذا بصراع حاد يدبّ فيما بينهم، فالآية الكريمة: ﴿بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ تظهر حالتهم النفسية المشبعة بالخبث.

وصفة أخرى يشتركون فيها هي: أنهم "يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ" بما ينشرون من نشريات مبتذلة خليعة ويلقنون الفساد باستمرار، فيستحوذون بها على الشباب استحواذ التنويم المغناطيسي؛ فينقاد الناس لأوامرهم. حيث إن وسائل الإعلام والإعلانات قوية إلى درجة تؤثر في الإنسان. فالذين زاغت عقولهم وغشيت أبصارهم وسطاء وعملاء وآلات بيد المنافقين لا ينفكون عنهم. فلا يدعون خبثاً ولا فساداً لعيناً إلاّ واقترفوه لأجل إدامة قواهم الاستغلالية، ولأنهم منافقون، فهم يُعرفون حالاً بصفتهم المميزة هذه أينما كانوا في العالم. حيث إنهم يأمرون الناس بالمنكر وينهونهم عن المعروف.

نعم، الصفة المشتركة الثانية لهم هي أنهم "يحولون دون المعروف ويمنعون الخير"؛ حيث يسعون لجعل المجتمع تحت سيطرتهم النفسية بوصمهم كل من يريد العيش الفاضل بأنه "متخلف رجعي". فكل مصلّ وصائم متخلف رجعي في نظرهم. والزيّ المميز للنساء وما يغطي رؤوسهن علامة رجعية مرعبة وإشارة شؤم لهم. وإذا ما تطرقت إلى محبة الأمة فإذن أنت قومي متطرف في نظرهم.. وهكذا.

نعم إن كل جميل وحسن منكر وقبيح عندهم. حتى كأنهم مصابون بمرض حساسية مفرطة تجاه كل ما هو معروف ومستحسن لدى الأمة. وهذا من مقتضى النفاق الذي هو الدرك الأسفل الذي يسقط فيه من لم

يتكامل ظاهراً وباطناً، كما يعبّر عنهم القرآن الكريم، بل يجسّم القرآن الكريم صورهم واضحة بقوله: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلّ﴾(الأعراف:١٧٩).

وعلى هذا الأساس ينبغي على المؤمنين أن يقوا أنفسهم من التورط في السقوط في هذا الدرك الأسفل بأدائهم مسؤولياتهم على وجهها، وذلك بأمرهم بعضهم البعض بالمعروف والحث عليه ونهيهم عن المنكرات والسعي للتخلي عنها. فكما أنهم يتجنبون ويخشون السقوط في هاوية النفاق، عليهم أن يخشوا كذلك من مثل هذه العاقبة لأصدقائهم وأحبابهم. وعليهم أن يكونوا يقظين ويجعلوا المجتمع الذي يعايشونه في حالة متيقظة أيضاً. نعم، إن هذه الميزات لا تنفك عن كونهم مؤمنين كما ذكرنا آنفاً.

وفي الحقيقة لأجل إقامة مجتمع سعيد آمن ينبغي عدم إفساح المجال لأصغر منكر. وبخلافه فإن ما يبدو صغيراً في بادئ الأمر ينتشر في وقت قصير جداً ويستشري كالوبـــاء الساري إلى حد قد يهدد المجتمع بكامله، وأحياناً الأمة قاطبة، بل الإنسانية جميعا فيهددهم بالفناء والتعاسة. وما دبّ الفساد والانحراف في المجتمع إلاّ من مستصغر المنكرات. فإذا ألقينا نظرة إلى التاريخ من هذه الزاوية رأينا كثيراً من فساد المجتمعات وتفسخها نتيجة لتكرر الأمر نفسه. والحديث الشريف الذي ســنورده مهم جـــداً من حيث التحليل التاريخي لمثل هذه المجتمعات المتفسخة:

"إن أول ما دخل النقص على بني إســرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك. ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض. ثُمَّ قَالَ: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۞ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾(المائدة:٧٨-٧٩)". ثم قال رسول الله ﷺ: "كلاّ والله لَتأْمرُنَّ بالمعروف ولَتنهَوُنَّ عن المنكر، وَلَتأْخذُنّ على يدَي

الظّالم، ولَتَأْطُرُنَّه على الحقّ أَطْرًا، ولَتَقْصُرُنَّه عَلَى الحقّ قصرًا". [1]

هنا عندما يذكر موقف قسم من بني إسرائيل الذين أجازوا المنكر، يجنّب المؤمنين من مغبة العاقبة نفسها، وينبّههم إلى عدم السقوط في الهاوية نفسها. ولاشك أن ذكر أمثال هذه الحوادث هو لبيان قسم من الحكم لكل زمان.

ويمكن أن نحلل الحادثة نفسها كالآتي: لقد شوهد منكر مرتكَب، فالذي نبّه مرتكِبَ المنكر هو في الحقيقة ينكر ذلك المنكر ويعارضه.. وقد نبّه المرتكِب في اليوم الأول، ولكنه لم يحافظ على موقفه هذا الذي يتطلب الدوام والثبات، ولم يتمكن من أن يحافظ على حيويته الروحية ومعنوياته، تجاه إصرار مرتكب المنكر على منكره، بل تقرّب إليه وجالسه وآكله وسامره مديماً صداقته معه. أي لم يستطع أن يحرك ساكناً بإظهار البغض في قلبه الذي ما بعده من خردل من الإيمان. ولما لم يبق تجاه ذلك المنكر ما يقاومه فقد تهيأ له وسط ملائم لينتشر في المجتمع. والله سبحانه جعل قلوبهم مختلفة حتى ألقى فيما بينهم منازعات داخلية ومزّقهم شر ممزق.

نعم، إن الله سبحانه وتعالى قد ألقى في قلب الكافرمن اليهود النفاق بجعله موافقاً لقلب صاحب المنكر. ولم يبق من صنوف التعذيب وأنواع الهوان والذل إلا سامهم بها عالم النصارى في حقبة من أحقاب التاريخ.. ومن قبل عاشوا حياة الأسرى طوال عصور في بابل. وقبل ذلك في فترة أخرى ذاقوا صنوف التنكيل والعذاب في عهد "شابور". وهكذا لم يجدوا الراحة والأمان في أي وقت كان. والسبب الوحيد الذي أرداهم إلى هذه الحالة هو تركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما بينهم. فانتعشت فتن التفرقة والاختلاف في قلوبهم، بل كانوا يتزعزعون من الأساس بين حين وآخر.

فالرسول ﷺ عندما يذكر هذه الحالة عن بني إسرائيل، يبين في الحقيقة

(١) أبو داود، الملاحم ١٧؛ ابن ماجه، الفتن ٢٠.

للأمة ما ينبغي القيام به مقدماً لئلا تجد العاقبة نفسها، ويعلّم كيفية الحيلولة دون التفكك والانهيار الاجتماعي.

واستطرادا أود أن أبين بعض النقاط التي ألحظ فيها فائدة وهي خارج الصدد: إن بني إسرائيل -كما هو لدى البعض- لم يحققوا الاتفاق والتوحد حتى في زمن سـيدنا موسى ﷺ. ولهذا كانوا يؤدَّبون دائماً. فلئن كان اليهود ظاهرين في الوقت الحاضر -ويعدّ هكذا- فلابد أنه نتيجة اتفاقهم الظاهر والناشئ من التمسك والاعتزاز بقيمهم التاريخية، حتى حقق لهم إنشاء دولة بشكل من الأشكال. فلو ابتعدوا عن قيمهم التاريخية وانشغلوا بالمنازعات الداخلية فلا مناص من الانهيار المحتم. نعم، إن بني إسرائيل اليوم واليهود يجنون ثمرات احترامهم لدين سماوي رغم أنه مفتوح من حيث بعض جوانبه للتصحيح والتجديد.

وإن العالم الإسـلامي اليوم يعاني مما هو فيه من أمراض وعلل وفقر إلى حد البؤس، فلابد لـه من انتفاضة ورجوعٍ إلى ذاته، فروحه يكابد الذل وعقله يعاني من القصور والضعف، وأعضاؤه تضطرب من العلل والأسقام، فلئن لم يسعف عاجلاً ويضمد فوراً فلربما يتدهور أكثر فأكثر. وحينما يتداوى لابد أن يُعلم في أثناء التداوي والضماد أن رسالته تحيط بالكائنات برمتها. وحينها يحتضن الإسلام بإذن الله جميع أمم الأرض ناشراً المحبة والوئام والوفاق ونافثاً روحاً جديدة في العالم أجمع.

إن حوادث كثيرة تدل على أن شعار الإيمان هو أداء مهمة الدعوة والإرشاد. وسأفتتح هذا الفصل بإحدى تلك الحوادث. هذه الحادثة متعلقة بسيدنـا أبي بكر الصديق ﷺ: قام أبو بكر الصديق ﷺ فحمد الله وأثنى عليه، وقال: أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت

رسول الله ﷺ قَالَ: "والّذي نفسي بيده لَتأْمُرُنَّ بالمعروف ولَتَنْهَوُنَّ عن المنكر أو لَيُوشِكَنَّ الله أَن يَبعث عليكم عِقابا منه ثمّ تدعونه فلا يُستجاب لكم".[1]

ولا تعني الآية الكريمة: لا تلتفتوا إلى الآخرين وانكفئوا على أنفسكم، بل المراد منها هو خلاف هذا المفهوم، وهو: أنكم إذا تباحثتم عن ضلال الآخرين وزلاّتهم لا تنسوا أنفسكم. أي أن في الآية حثاً على محاسبة الفرد لنفسه. و سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ هو أحد الذين أدركوا هذا المعنى على أفضل وجه فروى حديث رسول الله ﷺ دليلاً على فهمه الصائب للآية الكريمة. وهناك أحاديث كثيرة في هذا الباب نسجل هنا بعضها:

روى الترمذي في حديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: "والّذي نفسي بيده لتأمُرُنّ بالمعروفِ ولَتنهَوُنّ عن المنكر أو لَيوشكنّ الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يُستَجابُ لكم".[2] وروى الترمذي أيضاً حديثاً ضعيفاً هو الحديث السابق مع زيادة الآتي: "أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم".[3]

الشرار هم الحثالات والرعاع الذين لا يفهمون شيئاَ من الأعمال وشؤون الإدارة، ولا يعلمون شيئاً عن الدين والتدين، ولا يؤمنون بكتاب أو نبي، فيسخرون بالمقدسات المعروفة كلها ولا يقدرونها حق قدرها. و لم يسلطهم الله على أمة من الأمم أو دولة من الدول إلاّ خابت وما أفلحت. فصنف من أصناف ذلك العقاب هو تسلط الأشرار على الأمة وتوليهم أمرها بالقوة والقهر، حتى غدا هذا العقاب عقابا عادلاً استحقه المسلمون، ذلك لأن الله سبحانه يمهل ولا يهمل قط، فيؤخر ويؤجل عقاب عدم الإيفاء بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن ما إن يحين موعد العقاب حتى يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.. وفي هذه الأثناء لو ملأ الأخيار والأبرار

---

(١) الترمذي، الفتن ٩؛ أحمد بن حنبل، المسند ٥/٣٨٨.

(٢) الترمذي، الفتن ٩؛ أحمد بن حنبل، المسند ٥/٣٨٨.

(٣) مجمع الزوائد للهيثمي، ٧/٢٦٦.

المساجد وتضرعوا إلى الله بدموع غزيرة ساخنة حتى تبتل سجاجيدهم بها وقاموا بهذا إلى الفجر فلا يُرفع عنهم هذا العقاب ولا يفلتون منه إلاّ باكتمال مدته. وهذا قانون إلهي لا يحيد ولا يتبدل في أي زمان.

وإذا بسطتم هذه العبارات كحقيقة في واقع الحياة وعلى جميع وحداتها رأيتم أن الأمر نفسه لا يختلف منذ القدم. فحالنا اليوم ما هو إلاّ بضعة أجزاء من هذه الدورة التاريخية المتكررة.

فالأدعية المرفوعة والتضرعات والزفرات الصاعدة والدموع المنهمرة في المناجاة في المساجد إن لم تجد القبول عند ذي العرش العظيم، فكيف إذن يمكننا أن نوضح الأمر إلاّ بأنه كفارة لذنب قد ارتكب، هذا الذنب هو الذي أكّدنا عليه كثيراً وهو إهمال القيام بمهمة مقدسة أو على الأقل عدم إيفاء حقها من الأداء.

نعم، لقد جعَلَنا هذا الذنبُ مقطوعي الصلة بربنا، إذ إن غاية وجودنا هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد خلقنا ربُّنا لأجل هذا الأمر.. ولاسيما الداعين إلى الحق، الذين نذروا أنفسهم في سبيل الحق، أولئك العشاق الذين لا يجعلون غاية سعيهم في الدنيا حتى الجنة، بل لو استطاعوا ووجدوا فرصة لبلّغوا هناك كذلك عن ربهم ودعوا إليه مفضلين هذا الأمر على نعم الجنة الأخرى. أولئك الذين يحملون أرواحاً سامية يفضلون دخول جهنم دون تردد إن أمكنهم للتبليغ حتى لزبانيّها. نعم فلئن أهمل هؤلاء غاية وجودهم، تلك المهمة الجسيمة.. فهذا يعني أن البلايا والمصائب قد استأذنت بالنـــزول على الدنيا. وليس بعد ذلك ما ينبغي أداؤه إلا الدعاء. والله أعلم بجدوى الدعاء. لأن الإصابة بهذه الحالة توجه تام نحو الفناء من زاوية.. ومثل هذا اليوم يوم عصيب.. حيث أسدلت فيه الرحمة نقاباً على وجهها ورفع الغضب لثامه عن وجهه. بمعنى أنه قد ابتلي ببلاء جارف لا رجعة له.

وإذا نظرتم إلى هذا الوضع المزري للعالم الإسلامي، رأيتم في هذه المرآة ما ذكرناه آنفاً الواحد تلو الآخر.

نعم، إذا نظرتم إلى التاريخ سترون كيف أن أمة عظيمة عريقة قد دفعت إلى هاوية سحيقة ولوليتم فراراً من المنظر الرهيب، فالأجيال أصبحوا مقطوعي الصلة بالله ورسوله وكتابه حتى ضلوا ضلالاً بعيداً، فقد نـــزع عنهم الروح والقلب وغدوا خلقاً عجيباً ليس لهم إلا المعدة والأمعاء، من دون رأس ولا رئيس.

هذا الجمع من الشعوب العريقة دون حظ ولا سعد يكابدون ويعانون تحت مخالب القوى السرية الأجنبية، ولا يجدون الخلاص والفكاك منها. ترى ماذا حل بالأدعية المرفوعة في الكعبة المشرفة؟ لِمَ لا تسعف الدموع التي تسكب في المساجد؟.. ذلك لأن كفارة ذلك الذنب ليست هذه، فلقد حلّت بنا هذه الطامة بتركنا وظيفة جليلة.. ولنأت البيوت من أبوابها. فالخروج من الهاوية السحيقة هو من موضع السقوط فيها. ولئن أدينا تلك المهمة على وجهها نجونا من هذه الحالة الرهيبة بإذن الله تعالى. ولهذا فالأدعية المرفوعة بالألسنة لا تجدي وحدها مع أن لها فوائد أخروية للداعي بلا شك، ولكن النجاة من الذل والهوان في الدنيا ليس إلاّ بأداء مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أفضل أداء.

وكما ذكرنا سابقاً يمكن أن يكون في الجماعة والمجتمع أشخاص أفاضل كثيرون. ويمكن أن يكونوا مقربين إلى الله، ولكن إن لم يكن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤدّى، ولم تؤسس مؤسسات لتوفي هذه المهمة حقها بصورة منظمة، فالله سبحانه وتعالى يجعل ذلك المجتمع عاليه سافله وهيهات أن يحظى ذلك المجتمع أو تلك الأمة بدوام البقاء.

نعم، إن الله سبحانه وتعالى لا يؤاخذ الجميع لذنب ارتكبته ثلة منهم؛ فلا يؤاخذ المجتمع بما يرتكبه المترفون الضالون، إلاّ أن القادرين على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إن لم ينطلقوا إلى الميدان فالعذاب يحيط بالجميع.

يروي أحمد بن حنبل حديثاً شريفاً حول هذه القضية: "إنّ الناس إذا رأوا المنكرَ فلَم ينكروه أوشك أن يَعُمَّهم الله بعقابه".[1] والأمر نفسه تبينه الآية الكريمة الآتية: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(الأنفال:٢٥).

٨- الإرشاد والهلاك من خلال الحوادث التاريخية

يمكن النظر إلى أسباب هلاك أقوام في التاريخ من زاوية القيام بمهمة "الأمـــر بالمعروف والنهي عن المنكر". وحينما ننظر بهذا المنظار ونقيم الأحداث في ضوئها يصادفنا الآتي:

لضمان دوام المجتمعات المؤمنة دعامتان أساسيتان، وإن عدمهما هلاك صنفين من المجتمع وعاقبة هلاكهما أمر محتّم، ونصل إلى النتيجة نفسها سواء اطلعنا على الأمر من جانبه السلبي أو الإيجابي. إن الله لا يهلك قوماً يؤدون مهمة "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر". وكذا لا يهلك قوماً فيهم من يؤدي هذه المهمة المقدسة ولم يكونوا مغلوبين على أمرهم ولو كانوا قلة. ويمكن أن نعد هذا الجانب هو الإيجابي في النظر إلى المسألة. أما الجانب السلبي فهو إن لم يكن في قوم من يقوم بـــ"الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" فالله سبحانه يهلكهم. وكذا لو كان فيهم جم غفير يؤدون تلك المهمة القدسية ولكن غلبتهم ضلالة الآخرين وفجورهم حتى أقروا بمغلوبيتهم، فالله سبحانه وتعالى سبحانه يهلكهم أيضاً. وسنوضح الأمر بالآيات الكريمة في موضعه. وهنا لابد أن نقول بيقين: أن الذي يحول دون هلاك أمة من الأمم المؤمنة هو قيامهم بهذه المهمة الجليلة بما أسسوه من مؤسسات للإرشاد. نعم الأمة لا تنجو من النهاية المحتمة إلا بمثل هذه الجهود الجادة.

ونوردعددا من الأسئلة:

---

(١) أحمد بن حنبل، المسند ٢٥/١؛ أبو داود، الملاحم ١٧.

أ- سيدنا نوح عليه السلام

لقد دعا سيدنا نوح عليه السلام طوال عمره قومَه إلى الحق، ولكنه قوبل في كل مرة بالإنكار والردّ بل أوذي، فما آمن معه إلاّ قليل. وآل الأمر إلى حدٍ اضطر معه سيدنا نوح عليه السلام إلى الاعتراف بأنه مغلوب تجاه الكفار، وإلى الدعاء والالتجاء إلى ربه الجليل طلباً للنصر. ولا شك أن دعاء مثل هذا النبي الكريم لا يردّ، وفعلا لم يردّ. والقرآن الكريم يفصل لنا هذه الحادثة: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۞ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ۞ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ۞ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۞ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۞ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ۞ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ۞ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾(القمر:٩-١٦).

نعم إن سيدنا نوحاً عليه السلام قد حظي بالنبوة وأُلبس تاجها. فهو مأمور إلهي يأتمر بأمر الله وحده ويدعو الناس إلى العبودية لله. غير أن قومه كانوا يقولون إنه مجنون. والحال أن قولهم هذا دليل كمال الإيمان في النبي. لأن موازين الحياة الاجتماعية في ذلك القوم قد انقلبت رأساً على عقب وجميع القيم قد انعكست وانتكست. فالنبي ليس سوياً في مقاييسهم. وسيطلقون عليه أنه مجنون وقد أشاعوه فعلاً. ذلك لأن هذا النبي العظيم كان يسعى لإعمار ما هدموه وإصلاح ما أفسدوه في كيان المجتمع كله. ولا جرم أن يوصم من كان هكذا في هذا الوسط أنه مجنون. كما ورد في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أَكْثِروا ذكر الله حتّى يقولوا مجنون".[١] وعلى هذا رفع سيدنا نوح عليه السلام يديه ودعا ربه: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ فأغرق الله سبحانه قومه الضالين، وأهلكهم بالماء المنهمر من السماء والعيون المتفجرة من

---

(١) أحمد بن حنبل، المسند ٣/٦٨؛ الترمذي، الزهد ٣٩؛ صحيح ابن حبان، ٣/٩٩.

الأرض، وربما هي هذه حضارة الأطلنطس وربما هي حضارة أخرى فالنتيجة أن الكفار قد أُغرقوا سواء في الأطلنطي أو أي بحر آخر. والحادثة هي أن حضارة تغرق على الرغم من وجود نبي عظيم بينهم يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر كل آن وحين، لمّا أعلن أنه مغلوب. وتعقب الآية الكريمة غرق القوم ونجاة المؤمنين مع سيدنا نوح عليه السلام ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ أي هل من متّعظ؟ ونحن نقول أيضا: هل من متعظ من الآثار والخرائب المبثوثة على وجه الأرض؟ فالمئات منها علامات وأمارات على قوم مجرمين بل كل منها آية من الله ماثلة أمامنا فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ؟ وهَلْ..؟

بـــ- سيدنا صالح عليه السلام

لقد عصى قوم سـيدنا صالح عليه السلام نبيهم، حينما أرسل الله إليهم ناقة معجزة وأمرهم بعدم مسها بسوء، ولكنهم بَغَوا فعقروا الناقة. وربما يُستغرب هذا التكليف الإلهي بعدم التعرض للناقة، ولكن إذا علمنا أن لله سبحانه لكل عصر نوعاً من التكاليف يزول الإستغراب؛ فكما يكلف سبحانه بأداء الصلاة وإيتاء الزكاة والصيام في شهر رمضان كذلك له تكاليف أخرى كعدم شرب الخمر وتجنب الربا والزنا. وكذلك أمر الله قوم صالح عليه السلام بعدم التعرض للناقة. إلاّ أنهم خسروا هذا الامتحان.

وسورة الشمس توضّح الحادثة كالآتي: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۞ إِذْ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ۞ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا ۞ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾(الشمس: ١١-١٤).

فقوم ثمود لمّا عصوا نبيهم صالح عليه السلام ما كان منه إلاّ قوله: ﴿نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا﴾ ذلك لأن التعرض لها يعني مس زر البلاء والمصيبة. ولكن أشقاهم عقر الناقة فمس زر البلاء. وهذا الأمر -كما يبدو- سار في الأدوار جميعها، إذ يتقدم أحدهم القوم بالكفر والآخرون يتعقبونه أفواجاً. والذين تعرضوا

لدينا في فترات مختلفة قد مسوا زر البلاء والمصيبة، فأسقطوا بمسهم هذا أمةً رفيعة عظيمة. وقد بدأت نكبة هذه الأمة بالتعرض للقرآن الكريم. واستمر السيناريو مع تبدل الأدوار والأشخاص. أما قام أحدهم بتلويث الكعبة المشرفة وبئر زمزم في فترة من التاريخ؟ وربما تحدث أشياء أخرى أمثالها.

وهكذا تقدم أشقى القوم من ثمود وعقر الناقة دون أن يلقي السمع إلى نداء النبي الكريم: لا.. لا تعملوا.. لا تتعرضوا.. فالذين قاموا بهذا فعلاً والذين سكتوا عليهم قد هيأوا بأنفسهم عاقبتهم الوخيمة. فدمدم عليهم ربُّهم وأهلكهم جميعاً دون تمييز بينهم، ودفَنَهم في مقبرة الماضي. فكما أبادهم ببلاء ومصيبة جعلهم لا يُذكَرون إلاّ بسوء.

وقد لا تصيب المصيبة الأجساد، فمثلا المسخ قد لا يصيب الصورة بل السيرة. لـــذا يصعب فهم هذا البـــلاء، بلاء مسخ السيرة، أكثر من الذي يصيب الجسد فقط على الرغم من أنه أشد منه. وأغلب البلايا التي تنـــزل في الوقت الحاضر هي من هذا الصنف. وأعتقد أن أحد أسباب دوام الغفلة بشكل محير؛ هو أن الناس لا يميزون البلاء النازل عليهم.وتختم السورة بـــ: ﴿وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ فهو صاحب الملك يتصرف في ملكه ما يشاء.

نرى في ضوء هذه الآيات أن الله سبحانه يهلك ثمود عندما يكون نبيهم صالح عليه السلام مغلوباً على أمره ولا يُسمع كلامه وإرشاده، فيهلكهم ويسوي بهم الأرض. ذلك أنه ســـبحانه وتعالى قـــد خلق الكون ولاسيما الإنسان لمعرفته والإيمان به. فهذه هي حكمة وجود الدنيا. وعندما يكون المؤمنون مغلوبين على أمرهم تتزعزع هذه الحكمة، فالله سبحانه يزعزع أهل ذلك العصر ويسوي بهم الأرض كما ذكرنا. وهذا قانون إلهي لم يتبدل ولن يتبدل في أي زمان كان.

جـ- سيدنا لوط عليه السلام

وكان سيدنا لوط عليه السلام معاصراً لسيدنا إبراهيم. ظهر في قومه فساد لم يسبق له مثيل في البشرية فارتكبوا إثم اللواطة. وهذا النبي العظيم يجادل قومه في هذا الإثم الشنيع. وإذا بضيوف يحلّون في بيته على صورة شبان مُرْد. وإذا بالقوم الضالين يهرعون إلى بيت النبي الكريم ويُعلمونه ما يريدون، وسيدنا لوط كأنه يتوسل بقوله: ﴿وَلاَ تُخْزُونِي فِي ضَيْفِي﴾ فأشار لهم إلى بناته ساعيا جرّهم إلى وسط شرعي. ولكن الجهود كلها ذهبت أدراج الرياح. إذ: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾. وسيدنا لوط قال متحسراً: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾. وفي الحقيقة كان له ركن شديد يأوي إليه، إلاّ أن الموقف العصيب دفعه ليقول هذا الكلام. وعندها يكشف الضيوف عن كونهم ملائكة لا يمكن أن يقترب القوم الضالون منهم.

نورد أجزاء من هذه القصة الطويلة في القرآن الكريم: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۞ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَاقَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَلا تُخْزُونِي فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ۞ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ۞ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيد ۞ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمْ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۞ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ۞ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾(هود:٧٧-٨٣)

وهكذا أُهلكت سدوم (مدينة قوم لوط عليه السلام) فجعل الله عاليها سافلها

ودُفنوا في عمق بحيرة لوط. ولاشك أن هذا العقاب لا يخص قوم لوط وحدهم بل إن ظالمي كل دور وفترة معرّضون إلى هذا العقاب.

وأبرز مثال لهذا (بومبي في ايطاليا). إذ كان هناك نصارى يدعون إلى الحق والحقيقة ولكنهم كانوا مغلوبين أيضاً، بينما كان القوم يتمرغون في الفساد والرذائل، فحول الله سبحانه ذلك المكان إلى مقبرة باللهب المتأجج من بركان (فيزوف)، علماً انهم كانوا قد أصبحوا في عداد الأموات بأرواحهم منذ مدة مديدة. ومع أن الذين هربوا إلى شواطئ البحر لينجوا، فقد تعقبتهم ركامات عظيمة من الرماد ودفنتهم في مواضعهم.

د- وآخرون

إن القدرة الأزلية التي أخذت قوم لوط غير المؤمنين أخذ عزيز مقتدر، قد أجرت حكمها بقانون عام في الهلاك على أقوام آخرين، وعلى النمط نفسه.. وهذا واقع على مرّ الزمان في التاريخ.

فمثلاً: الحضارة الباهرة التي دامت ثمانية قرون في الأندلس، عندما اعترتها تغييرات داخلية عاد الذين دخلوا البلاد أعزاء أذلاء بسيف "فرديناند". فكان المسلمون يبكون كمداً على هذه العودة المشينة، ولكن لات حين مندم.. إذ كانوا لا يبكون على ما يستحق البكاء عليه مما هدموه بأيديهم من عوامل وجودهم، بل كانوا يبكون على ما تركوه من جنات وعيون وحمامات طليطلة. نعم، كانوا يبكون على جنائزهم.

هذه الروح الرذيلة المنهارة هي التي دمّرت العباسيين، وكذلك الأمويون انهاروا وانقرضوا باللوثة نفسها، والسلاجقة تجرعوا الغصص من عاقبه العيش الفاسد، وما عاقبة العثمانيين إلاّ نتيجة هوان الروح وانهيارها؛ فعندما تدخلون قصر "دولمة باغجة" تجدون أنفسكم أمام لوحات حزينة للانهيار في حيطانه، ذلك لأنكم تسمعون أن ستة عشر طناً من الذهب صرفت لتذهيب

زخارف تلك الحيطان وريازتها، فيأخذكم الهلع والرعشة.

فهذا قانون إلهي لا يتبدل ولا يتحول. ويمكنكم أن تقيموا على هذه القاعدة سقوط روما والساسانيين وكذا حضارة مصر، وكل ما قامت وانهارت من الحضارات على طول التاريخ. فالله سبحانه يهلك البلدة التي لا يُذكر فيها اسمه ولا يعرّف به. إذيعني هذا أنه قد انتفت حكمة وجود تلك البلدة. ولعل سبب قيام الساعة هو هذا، أي لا تبقى لوجود الدنيا حكمة، حيث المؤمنون على أهون حال والإلحاد مستشر، وعندها يجعل الله سبحانه الدنيا عاليها سافلها.

هذا، وإن غدا القرآن كتاباً لا يُفهم ولا تُدرك مراميه، فظلال البلايا والمصائب تطل علينا إذن. ولئن لم ينـــزل الهلاك بعدُ علينا، فإنه من سعة رحمته تعالى وعظيم حلمه، كما كان سيدنا أبو بكر الصديق يقول حيناً بعد حين "اللهم ما أحلمك!" نعم، إنه حليم يمهل المذنب ولا يهمله، ذلك "إنّ الله لَيُملِي للظّالِم حتّى إذا أخذَه لَم يُفلتْه".[1]

تأملوا، كيف أن الله سبحانه وتعالى يعرّف نفسه لنا بصفتي "الرحمن الرحيم".. فالواجب إذاً علينا أن نؤمن بـــه ونقابل تلك الصفتين الجليلتين بالعبودية والإخلاص، دعـــاة إلى الله تعالى مرشدين القلوب إليه بالإيمان والأمان.

وفي الحقيقة أن المؤمن هو إنسان الأمن والأمان، فلن يصدر منه ضرر، والمسلمون هـــم ضمان الأمان للإنسانية، وصمام أمن وأمان للحياة الاجتماعية، فكما أن المؤمن هذا حاله مع الإنسانية قاطبة فهو أشد أمناً للمؤمنين وأعمق أماناً لهم. ولهذا فهو يبلّغ ما انتقل إليه من جمال ما أمره الله به ورسوله ﷺ، وفي الوقت نفسه يحاول إعمار مجتمعه ويسعى بجد للحيولة دون أن يمسهم أي ضرر. والذين يأبون القيام بهذه الوظيفة النبيلة يعني أنهم

---

(١) البخاري، التفسير (١١) ٥؛ مسلم، البر ٦١.

يردّون ما وهب الله لهم من صفة "المؤمن" الرفيعة!

نعم، للمؤمن وظائف عدة ابتداءً من أصغر دائرة، وهي دائرة القلب، إلى أوسع دائرة، كل حسب موضعه، فالبيت، والقرية، والبلدة، والأمة، والإنسانية، كلها دوائر لوظائف متداخلة، فإذا تيسّر له البلوغ إلى أقاصي العالم وآفاقها لإبلاغ ما لديه من كنوز النور بلّغها. وحتى لو لم يفهم مخاطبوه ولم يدركوا كنه ما يبلّغه لهم فإن حرمانهم الناجم من إهمال إرشادهم نقص عظيم وعاقبته وخيمة.

وكذا إن لم يُصدّ الكفرُ ويُمنع الإلحاد، فلا يُهلك الكفار والملحدون وحدهم بل المؤمن أيضاً سينال حظه من هذا الخراب والدمار؛ إذ كان عليه أن يؤدى وظيفة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ليحول دون الوقوع بالهلاك الفجيع الشامل على أقل تقدير.

يوضح الرسول الكريم ﷺ هذا الأمر بقوله الشريف: "مثَلُ القائم على حُدود الله والواقِعِ فيها كمثَلِ قَومٍ استهَموا على سَفينة فأصابَ بَعضُهم أعلاها وبَعضُهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقَوا من الماء مَرّوا على مَن فَوقَهم فقالوا لو أنّا خرَقنا في نصيبنا خرَقا ولم نُؤذِ مَن فَوقَنا فإنْ يَترُكوهم وما أرادوا هَلَكوا جميعا وإنْ أخذوا على أيديهم نَجَوا ونَجَوا جميعا".(١)

فهذا الحديث الشريف هو تمثيل، بالقياس التمثيلي، كما يطلق عليه علم المنطق. إذ يبين الرسول ﷺ مسألة اجتماعية خطرة ويعبّر عنها بمستوى أفهامنا في صورة تمثيل. فالراغبون في خرق السفينة ربما يبدون لأول وهلة أنهم أبرياء، ولكن عاقبته الوخيمة لا تسمح أن يعدّوا أبرياء قط.

فانطلاقاً من مفهوم هذا الحديث الشريف، يمكن القول: إن الدنيا هي كسفينة نوح عليه السلام، وإن جميع بني البشر دون استثناء ولا اختيار قد أُركبوا هذه السفينة، لأنهم مضطرون للعيش في الدنيا، وإن سفينة الدنيا التي نعيش

---

(١) البخاري، الشركة ٦؛ أحمد بن حنبل، المسند ٤/٢٦٨، ٢٦٩.

فيها ونسيح معاً هي وحيدة ليس لنا خيار غيرها، ونظام الحياة في هذه السفينة يخص مَن أركبنا فيها. لذا لا يحقّ لأحد كائناً من كان أن يغيّر هذا النظام أو يخلّ به. والحفاظ على السفينة والحيلولة دون غرقنا جميعاً وظيفة كل من فيها دون أستثناء، والحياة الخاصة لا أهمية لها.. أي إن هذه الوظيفة العظيمة قد أُلقيت على كاهلنا جميعاً حالَما ركبنا في السفينة. فلا يمكن أن نسمح لإعدامنا وإعدام ملايين الناس الأبرياء بحجة أننا نهتم بخاصة أمورنا ولا نتدخل بشؤون الآخرين. أي من الضروري أن نكافح كل من يريد خرق السفينة أوالإخلال بالحياة الاجتماعية. ولهذا ففي الوقت الذي نحول بين المجتمع وبين أضرار المنكرات، حافظين الإنسانية من شرورها ونبلّغ في الوقت نفسه الخصال الحميدة والفضائل السامية أمراً بالمعروف. فالمجتمع الذي تنشئه الفطر السليمة يسلم من السيئات بأنواعها.

هذا جانب من المسألة، والجانب الآخر هو تحقيق الفضائل وإنمائها ونشر الحسنات في المجتمع. هذه هي المهمة التي تعهدناها للمجتمع، وهي مقدسة وعسيرة أيضاً.

إن الذي ذاق حلاوة الإيمان، من مقتضى المروءة، أن يُشرك الآخرين فيه. والمؤمن إنسان المروءة من قمة رأسه إلى أخمص قدمه، فهو يفكر دوماً بمصير الآخرين. فحين يرتع وسط ربيع زاه، يسعى أن يعيش غيره معه ويتذوق ما يتذوقه. أليس المؤمن يدع حبه للحياة ليديم حياة غيره؟ هل يمكن أن يقف من نفذ نور الإيمان في قلبه دون حراك؟ هذه الاستحالة تدفع المؤمن إلى السير في الأسواق، وفي البيوتات باحثاً عن القلوب المتعارفة. وهذا ضمان لوجوده أيضاً –من جانب– إذ الحفاظ على إيمانه في قلبه حتى الموت، وضمان دخوله القبر بهذا الإيمان إنما هو بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. فمن كان محروما منهما فلا ضمان له للإيمان. لذا يتحتم على المؤمن أن يؤدى هذه الوظيفة، إنقاذاً لنفسه، في الأقل.

٩- التبليغ والإرشاد مقياساً لنصرة الدين

الدين الإسلامي محفوظ من قبل الرب الجليل وسيحافظ على طراوته ونضارته إلى يوم الدين. فقد وعد الله سبحانه بحفظ دينه. ولكن هذه المحافظة والدفاع عن الدين وصونه تتوقف على همة المؤمنين به ومدى تمسكهم وولائهم لهذا الدين، أي إن الله قد جعل نصرة المسلمين لدينهم شرطاً عادياً لحمايته وحفظه، أي سيظل الدين محفوظاً ما دامت المشيئة الإلهية وتحقق الشرط العادي. هكذا يفهم الوعد الإلهي، لا غير.

أجل، على المؤمنين أن يكونوا حراساً للدين، فلو لم يكونوا ذابّين عن حياضه وناشرين له في الآفاق يُحرمون من فيض دينهم وبركته، وهذا لا يعني قطعاً أن الله تخلى عن حفظ دينه، بل إن المسلمين لم يرجعوا إلى الله سبحانه في طلب حفظ دينه، أي لم يدخلوا في الحفظ بإرادتهم التي تعدّ شرطاً عادياً من حيث تعلق الإرادة الإلهية. ولهذا شتتهم الله سبحانه وأذلّهم، أو حرمهم من بركات الدين ويُمنه. وهكذا يُفهم سبب الانقراض الحالي في الحياة الدينية؛ إذ بمدى تمسك المسلمين بالدين ونصرهم له يُحافظ عليه، وبمقدار ما يبذلونه من جهد في نشره في الآفاق يتعالى وتتفتح أزاهيره اليانعة.

ولقد نصر الرسول ﷺ هذا الدين وذبّ عن حياضه، فحافظ الله سبحانه عليه. ومن بعد رسول الله ﷺ تولى المسلمون الدفاع عنه والحفاظ عليه، طوال العصور، فحافظ الله سبحانه أيضاً دينه. ولكن ما أن تخلّى المسلمون عن دينهم وأرخوا أيديهم عنه حتى أذلّهم الله.

ولقد تلقى الرسول الكريم ﷺ هذه النصرة للدين والحفاظ عليه أعظم قضية من القضايا، وسعى حثيثاً لإيقاظ الأمة، حيث السعادة الأبدية في العالم الآخر متوقفة على مدى معايشة المسلمين لدينهم، والشيء الأساس الذي ينفع في المحشر والصراط والجنة ورؤية جمال الله هو خدمة الدين والعمل الصالح والقلب السليم.

وهكذا دأب الرسول الكريم ﷺ لأجل أن يملّك المسلمين مثل هذا الجواز "جواز مرور". لذا كانت الدعوة إلى الله والإرشاد إلى الدين أولى مسائله ﷺ.

وقد تنبه هذا الشعور للحفاظ على الدين في الصحب الكرام، فهم أيضاً نصروا الدين ودافعوا عنه بالغالي والنفيس واعتصموا به... ولم تذهب أعمالهم سدىً، حيث تحقق حفظ الله لدينه. نعم، كانوا رضوان الله تعالى عليهم يتسابقون في إبلاغ الدين إلى أقطار العالم، لما تعلّموه من الرسول الكريم ﷺ، وربما ما كان يتجاوز حفظهم للقرآن إلاّ بضع آيات وكذا من الحديث، إلاّ أنهم عاشوا بما علموا وسعوا في نشر الدين في أرجاء العالم.

فهذا مصعب بن عمير رضي الله عنه، بعثه الرسول الكريم ﷺ إلى المدينة المنورة عقب قدوم ثلة منهم إليه طالبين مَن يعلّمهم دينهم، أرسله لتحقيق هذه الغاية وحدها، فذهب وحده دون أن يستصحب معه أحداً، ونـــزل ضيفاً عند أحد المسلمين هناك. وكان كبار أهل المدينة يزورونه يومياً، فيعلّمهم دينهم، فيوماً أسيد بن حضير رضي الله عنه، ويوماً آخر سعد بن عبادة رضي الله عنه ويوماً آخر سعد بن معاذ رضي الله عنه. وهكذا.. وكانوا ينصتون إليه جيداً.(١)

وكان مصعب رضي الله عنه يتعامل بلين ورفق مع من يأتيه حانقاً ممتعضاً، فمن كان يأتيه حاملاً السلاح يرجع حاملاً الإيمان في قلبه -وهم الذين سيكونون من صحابة رسوله ﷺ في المستقبل- حتى كان مِن رفقِ حديثه معهم لا يتمكن أخشنُ إنسان أن يصمد طويلاً أمام ذلك اللين وتلك الرقة واللطف. فكان يقول مثلاً: أوَ تقعد فتسمع، فإن رضيت أمراً ورغبتَ فيه قبلتَه، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره، فوالله لا أقابلك بشيء حتى لو قطعت عنقي.. وهكذا زالت العقبات من أمام هذا الداعية العظيم الذي يستهين بالموت وليس له همّ إلاّ إبلاغ الحق إلى الناس. فتوسعت بفضل الله حلقات الهالة من حوله، ومضت حياته رضي الله عنه هكذا في دعوة الناس إلى الله حتى يوم بدر، وكذا الصحابة الكرام رضي الله عنهم

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم، ١/١٠٧؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ١/٢٢٠.

قد أمضوا حياتهم إلى تلك الفترة في التبليغ والإرشاد. ولكن في "أُحد" تقلدوا جميعاً السيوف حفاظاً على الدين، إذ كما أن التبليغ والإرشاد واجب، فالحفاظ على الدين واجب آخر.. ومصعب بن عمير ﷺ أيضاً معهم في هذا الحفظ. فحارب ببسالة نادرة إلى المساء حتى غبطته الملائكة على بسالته. ولكن وعلى حين غرة وقع على الأرض على وجهه بضربة قاضية من سيف كافر، وإذا بمَلَك يتخذ صورته ويديم جولات مصعب وصولاته، وفي المساء خاطبه الرسول الكريم ﷺ: يا مصعب! فأجابه المَلَك: لستُ مصعباً يا رسول الله.. وعندها علموا أن مصعباً قد استُشهد منذ مدة.

وبعد انتهاء المعركة أتى الرسول ﷺ مع جمع من الصحابة الكرام إلى جثمان مصعب الشهيد، ورأوا أن يديه قد قطعتا من المنكب، وضربة السيف على عنقه قوية إلى درجة فصلت الرأس عن العنق إلاّ بعض الألياف تربط ذلك الرأس المبارك بكتفه،[1] وقد أخفى وجهه في تراب الأرض المضمخ بدمائه الزكية.. لكأنما خاف أن يبصر وهو جثة هامدة رسول الله يصيبه السوء، فأخفى وجهه حتى لا يرى هذا الذي يُحاذره ويخشاه!. أو كأنه خجلان إذ سقط شهيداً قبل أن يطمئن على نجاة رسول الله، وقبل أن يؤدي إلى نهاية واجب حمايته والدفاع عنه.[2]

لم يكن مصعب بن عمير هو الوحيد في هذه الشجاعة والنبل بل الصحابة الكرام ﷺ جميعاً كانوا يحملون تلك الروح وذلك الشعور.. وهكذا حفظ سبحانه وتعالى دينه. ودام هذا الحفظ إلى أن حدث بعض التصدعات وفي فترات، وحيناً بعد حين. وفي فترات الهزات هذه قطع سبحانه شيئاً من يُمن الدين وبركته عن المسلمين الذين لم يدافعوا عنه ولم ينصروه، حيث إن الدين يصبح ديننا متى ما نصرناه ودافعنا عنه، وإلاّ لو

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد، ٤٢/٢، ١٢٠/٣، ١٢١.

(٢) رجال حول الرسول لخالد محمد خالد، ص ٥٢.

كففنا يدنا عنه وتراخينا في الذب عن حياضه يحرمنا الرب الجليل من فيوضاته النورانية وارداته الروحية.

فعندما كانت القدس تحت الاحتلال الصليبي ما ابتسم صلاح الدين الأيوبي ولا ضحك، بل بكى بكاءً مراً لسنين عدة، حتى إن خطيب يوم الجمعة ذكر ضرورة الابتسامة والضحك. وبعد انقضاء الصلاة أخذ صلاح الدين بيد الخطيب وقال له مقولته التي تستحق أن تنقش في حافظة التاريخ: "لعلك تعنيني. ولكن قل لي بربك كيف أبتسم والمسجد الذي عرج منه المصطفى ﷺ إلى ربه الكريم تحت سيطرة الأعداء". فهذا الرجل العظيم ما كان له إلاّ خيمة واحدة ليسكنها لحين استرداد المسجد الأقصى وكان يقول: كيف أمتلك بيتاً وبيت الله أسير بيد الأعداء.

هكذا صانوا الدين فغدا الدين دينهم... والآن جاء دورنا، فإذا نصرنا ديننا وتوليناه، ونشرناه، حفظ الله سبحانه لنا ديننا وهذا من أفرض الفرائض على كل أحد دون استثناء.

نعم، إن المؤمن عليه أن يعرف أولاً دينه ثم يحيا به حياته كلها، ثم يفهّم غيره بما يحيا به لينوّر حياتهم أيضاً بهذا النور. فكل مؤمن مكلف بهذه الوظيفة -كما نعتقد- وفق مبادئ الإسلام.

سأبين بعض المسائل التي أراها ضرورية، حيث لا تقدّر حق قدرها، بل هي من الأسباب الرئيسية التي أدت بنا إلى هذه الحالة المحزنة في الوقت الحاضر.

أولاها: إهمال الدين تدريجياً.

ثانيتها: حصر الخدمات الدينية على فئة معينة، وترك زمام الأمر موقوفاً على تلك الزمرة. هذا السبب الثاني خطر علينا كالسبب الأول.

ليُعلم جيداً أن الدين لا يُحصر على فئة قطعاً. فلا يمكن في أي وقت من الأوقات أن يكون الدين ملك فئة معينة، حيث هو ملك جميع من ينتسب إليه، إذ إن كل فرد ذو علاقة ورابطة مع ربه. فلا يمكن إزالة هذه الرابطة بين العبد

وربه كما لا يمكن الحيلولة دون نصرهم لدينهم ودفاعهم الشخصي عنه. إن حصر الخدمات الدينية على فئة خاصة غفلة عظيمة وخطأ جسيم لا يُغتفر. ولن ننجو مما نحن فيه من وضع أليم إلاّ بالخلاص من هذه الغفلة، وعندها يجد الفرج إلينا طريقه. وبخلاف هذا نكون مانعي ظهور الدين.

ولا شك أن حصر الخدمات الدينية على مؤسسة معينة لعبة من لعب الأجانب، ذلك لأن مثل هذا العمل لا علاقة له مع مفهوم الجهاد والتبليغ في الإسلام؛ إذ الإسلام كدين لا يمكن حصره بين جدران المسجد، فقد بعثه الله سبحانه إعماراً للدنيا والآخرة، فهو كلٌ لا يقبل التجزئة.

ففي اليوم الذي نقيّم الدين ككل وتألفه أرواحنا، نتحرر من الذل وننجو من الهوان، حيث ستتوضح المسائل الفردية والاجتماعية والإنسانية بشعاع الوحي المنير. وعندئذٍ ينجو الإنسان من القلق والاضطراب في الظلمات.

ولكي نقيّم مثل هذه الحالة، علينا التوجه التام الكلي -بأرواحنا وكياننا- إلى الدين القويم المؤسس على ما بيّنه مَن لا ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحى، ذلكم الرسول الكريم ﷺ.

وأذكّر بالآتي مرة أخرى: إن لم نغيّر ما في أنفسنا لا يغيّرنا الله تعالى، وهذه القاعدة سارية سلبا وإيجابا؛ فالنتيجة منوطة بمدى استقامة الفرد فكما أن انحرافه يُذهب بالحياة الدينية،كذلك استقامته تستردها مرة أخرى، لذا لا بد من تنشئة الناس فرداً فرداً ليكونوا ناصرين للدين مدافعين عنه.

هذا، ولابد أن لا ننسى أن الأفراد الأصحاء ينشئون أسراً صحيحة سليمة، وهذه تولد مجتمعاً سليماً معافى. فالحجر الأساس إذن في المجتمع هو الفرد ثم الأسرة وهكذا.. فلا مجتمع صالح من دون صلاح أفراده أولاً، والمجتمع السليم هو الذي يثبت وجوده بالاستقامة على ما أمره الله ورسوله ﷺ، ولأجل ديمومة هذا المجتمع على هذا المنوال لا بد أن يكون قلب كل من فيه عامراً بالمعروف ومتطهراً من المنكرات. ومن يقوم بهذا غير الأفراد أنفسهم؟

أما أصول التبليغ وفنه (تقنيته) فقد بيّنها الله سبحانه وبيّنها الرسول الكريم ﷺ. حتى إن الإرشاد والدعوة التي لا تسير وفق هذا المنهج لا تبلغ النتيجة المرجوة. ذلك لأن الله لا يرضى بسلوكٍ غير سلوك صراطه السوي، فلا جدوى من أمرٍ لا يرضى عنه الله حتى لو رضيت عنه الدنيا بأسرها. ولا شك أن رحمة الله قريبة ممن كان مع الله سبحانه. ونحن لا يعدّل حظنا المنكود إلاّ أولئك المباركون الناصرون للدين ممن لهم النصيب الوافر، من الرحمة الإلهية فيستنشقون تلك النفحات وينظمون حياهم وفقها. وأكرر مرة أخرى: أنه بقدر نصرتنا الدين، يكون الدين ديننا.